الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



كلية الآداب، اللغات والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

صورة الجزائر في مخيال الآخر

لدى الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها

إعداد الطالب:

أغامير محمد

تحت إشراف الأستاذ:

د. محمد بن سعيد

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د ناصر سطمبول	أستاذ	جامعة وهران	رئيس اللجنة
د محمد بن سعيد	أستاذ محاضر- أ-	جامعة وهران	مشرف ومقرر
أ.د أحمد شعلال	أستاذ	جامعة مستغانم	مناقش
أ.د صبار نور الدين	أستاذ	جامعة بلعباس	مناقش
د بومدين جلالي	أستاذ محاضر - أ-	جامعة سعيدة	مناقش
د بوشيبة الطيب	أستاذ محاضر- أ-	جامعة وهران	مناقش

السنة الجامعية: 2014/2013


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى روح والدتي التي تحملت ويلات الحياة من أجل تعليمنا

الى كل الزملاء الأفاضل الذين ساعدوني في انجاز هذا البحث بالنصيحة و التوجيه

وأخص بالذكر الأستاذ المشرف د.محمد بن سعيد

الذي لولاه ما واصلت الرحلة التي كنت قد تخليت عنها

لأكثر من عقد من الزمن

الباحث

المقدمة

المـقـــدمــة

يسعى هذا البحث لعرض صورة الجزائر التي تشكلت في مخيال الآخر-المخيال الفرنسي- في القرن 19 م خاصة عند بعض الكتاب الذين زاروا الجزائر مرافقين للجنود الغزاة أو وطأت أقدامهم أديم هذه الأرض بعد الغزو مباشرة، إذ رسخوا أو صححوا صورة تكونت لديهم نقلوها إلى قومهم عبر وسائل النشر المتاحة وقتئذ، وظهرت اغلب إعمالهم في جرائد ومجلات دورية قبل أن تطبع في كتب ومجلدات خلدت أصحابها قبل أن تخلد ساكنة هذه الأرض، اغلب هؤلاء الكتاب تجمعهم وحدة المقصد والهدف إذ انتموا إلى التيار الغرائبي Exotique الذي شغف بالشرق من خلال الموروث الثقافي الذي صنعه الاستشراق خاصة ورسخته تلك الصور المشرقة التي عكسها نص ألف ليلة وليلة بعد ترجمته إلى الفرنسية سنة 1704 من طرف"أنطوان غالون"، الصورة التي انبهر بها كتاب عمالقة أمثال فولتير واندري جيد ولامارتين وفيكتور هوجو وغوته وغيرهم الذين تمثلوها في أدبهم فانبهروا وابهروا بها القراء في بلدانهم .

أن تلك الصورة الجديدة قد انطبعت بحركة تتماشى مع الانجذاب الغرائبي للحركة الاحتلالية نحو البحث عن فضاءات بقيت ثابتة منذ أمد بعيد، وبذلك تحولت صورة القفر الكتابي الموروثة عندهم من الكتابات المقدسة؛ إلى صورة حركية لصحراء غدت مكانا للتأمل والشرود والتصوف، وهكذا تبلورت أسطورة الفضاء الصحراوي التي أصبحت عامل جذب لخليط من الكتاب على اختلاف ميولهم ومشاربهم : سواح - زوار - جزأريين- وأعضاء مدرسة الجزائر وكان جلهم رديفا لاستعمار استيطاني بغيض

يريد أن يمحو ذاتية وحضارة شعب سكن الجزائر منذ ألاف السنين ليحل محله شتات من المغامرين ضاقت بهم السبل في بلدانهم، أتوا الجزائر مغامرين معمرين انشئوا ضيعات شاسعة وزرعوها كروما، وربطوا اقتصاد الجزائر بفرنسا وشيدوا لهم في الشمال مدنا أوروبية جميلة – لم نحافظ عليها للأسف بعد الاستقلال– وفتحوا جامعة الجزائر التي كانت حكرا على الفرنسيين وأبناء خاصة الخاصة المتعاونة معهم وقد شكل معظمهم دفعة "لاكوست" الحاكم العام في الجزائر التي أطرت الدولة بعد الاستقلال وحافظت على مصالح فرنسا وامتيازاتها وساهمت في نشر لغتها التي توسعت رقعتها بعد الاستقلال أكثر من ذي قبل.

وقد رافق الاحتلال أيضا نفر من المستشرقين والمترجمين والباحثين والمكتشفين لمساندة مشروع الحملة العسكرية بأفكارهم وأرائهم وأقلامهم على غرار الأدباء، الذين رسموا صورة للجزائر نقلوها إلى أبناء جلدتهم حول العالم صورة– الجزائر عند هؤلاء وأولئك هي موضوع هذا البحث الذي قسمته إلى : مقدمة ومدخل وبابين كل واحد منهما بثلاثة فصول وخاتمة .

المقدمة: وفيها تعرضت للتعريف بالموضوع ومبرراته .

المدخل: وفيه تعرضت لصورة الجزائر قبل الاحتلال وكيف نظر إليها الأوروبيون عامة والفرنسيون خاصة بأنها أرض الهمجية والبربرية، مبررين غزوها بضرورة نشر الحضارة والقيم الإنسانية، وكيف أن غزوها كان امتدادا للحروب الصليبية وللصراع بين المسيحيين والمسلمين، وفي الحقيقة كان هذا الغزو يدخل في إطار التوسع الاستعماري الرأسمالي.

الباب الأول : الأدب المقارن

الفصل الأول : الأدب المقارن: نشأته وتطوره

وفيه عرفت بالأدب المقارن وعوامل نشأته وتطوره ودوره في التعريف بصورة شعب عند شعب آخر نتيجة عامل التأثر والتأثير اثر الاحتكاك الذي يقع في فترات السلم وعادة أثناء الحروب، وتعرضت فيه إلى رواد الأدب المقارن في أوروبا وأدوات الباحث المقارن وعدته وكذلك العوامل المكونة للأدب المقارن ومنها :

أولا : العوامل الداخلية النابعة من داخل الأدب وعناصره كالأفكار والتصور والخيال والعواطف .

ثانيا : العوامل الخارجية كدراسة الكتب ودراسة الترجمة الأدبية وكتب النقد والصحف والمجلات وأدب الرحلة والهجرات والحروب، وفيه تعرضت للمراحل التي قطعها الأدب المقارن كاختصاص مستقل يتعاون مع اختصاصات أخرى قريبة منه، وتعرضت فيه أيضا للاتجاهات الكبرى التي عرفها.

الفصل الثاني : الصورائية

تناولت فيه الصورائية كحقل من حقول الأدب المقارن، فتعرضت إلى تعريف الصورة وعوامل نشأتها، وكيف تتكون صورة شعب لدى شعب آخر نتيجة الاحتكاك الذي يقوم بين الشعوب بمختلف صوره وأشكاله. فتحدثت فيه عن الميتوس واللوغوس وعن سيميائية الصورة وعن دور الترجمة والاقتباس في صناعة هذه الصورة.

الفصل الثالث : أدب الرحلة

تناولت فيه أدب الرحلة فعرجت على نموذجين عربيين ذاع صيتهما في هذا المجال وهما الرحالة المغربي ابن بطوطة وكيف انه نقل للقارئ العربي أحوال شعوب وأمم أخرى أقام بين ظهرانيها مدة تطول أو تقصر، أما النموذج الثاني فهو رفاعة رفعت الطهطاوي في رحلته إلى باريس مرافقا ومرشدا دينيا لأول بعثة طلابية مصرية – بعثة محمد على باشا لطلب العلوم الحديثة في فرنسا–، كيف انه عاد منبهرا إلى بلده وكتب كتابه الشهير تخليص الإبريز في تلخيص باريز " بين فيه مدى التقدم الذي وصلته فرنسا مستنهضا همم شعبه وأمته لكي لتحذو حذو الشعوب الأوربية التي طورت علوما وضعية دفعت بها إلى المجد والسؤدد.

الباب الثاني : صورة الجزائر في الأدب الفرنسي

الفصل الأول : صورة الجزائر في أدب ألفونس دوديه

تناولت فيه الأديب الفرنسي الفونس دودية من خلال قصته الشهيرة طرطران دي طراسكون، ومن خلال الدراسة أظهرت الصورة التي كونها عن الجزائر والصورة التي نقلها إلى قومه بعد زيارته لها، هذه الزيارة التي لم تتعد سهل الشلف، وكيف صور الجزائريين، وكيف توج نفسه بطلا اصطاد عشرات الأسود في إفريقيا، والحقيقة أنه لم يصطد غير أسد واحد أعمى كان مريدو الولي الصالح سيدي أمحمد بن عودة يستعملونه وسيلة لاستعطاف الناس والحصول على بعض الهدايا والعطايا بدعوى خدمة ضريح الولي المذكور.

الفصل الثاني : صورة الجزائر في أدب غي دوموبسان

تناولت فيه الأديب غي دي موبسان من خلال نصه الأدبي " علومة " التي هي رمز للجزائر والتي تصورها فتاة ابنة احد المتعاونين مع الاستعمار امتزجت فيها الدماء العربية من جهة والدها والدماء الزنجية من جهة أمهما التي لم تكن سوى امة أسرها والدها في إحدى غزواته على قبيلة تارقية، وكيف أن علومة " الجزائر " اضطرتها الظروف إلى الارتماء في أحضان احد المعمرين الذي قضت معه مدة في علاقة محرمة لكنها في النهاية ورغم كل الإمكانيات المادية التي وفرها لها اختارت احد الرعاة من أبناء جلدتها وفرت معه منحازة له كناية على اختيارها لأبناء بلدها .

الفصل الثالث : صورة الجزائر في أدب لويس برتراند

تعرضت فيه إلى التعريف بالكاتب بصفته أحد مؤسسي "الأدب الكولونيالي"، وكيف كان أدبه مرآة للايديولوجيا الكولونيالية، كيف صور الجزائر واعتبرها أرضا رومانية أصابها الدمار والخراب "بالاحتلال العربي" الذي دمرها، ودور أحفاد الرومان من الفرنسيين خاصة والأوروبيين عامة في إعادة بعث الحياة في هذا الفضاء، وكيف أنه حاول أن يربط الجزائر بماضيها اللاتيني من خلال أدبه.

وأما الخاتمة فقد تعرضت فيها لأهم ما توصلت له عن صورة الجزائر في المخيال الفرنسي تطبيقا على نماذج ثلاثة أدباء عاشوا خلال القرن 19، نظر إليها الأول على أنها صحراء مليئة بالضواري وفضاء للصيد والنزهة، ونظر إليها الثاني على أنها فتاة جميلة امتزجت فيها الدماء العربية والزنجية، وأنها ارتبطت بعلاقة غير شرعية مع المستعمر، ونظر إليها الثالث بأنها أرض رومانية وحاول أن يربطها بالماضي اللاتيني وصورها على أنها

أرض جرداء قاحلة تعرضت للإهمال والخراب طيلة الوجود العربي بها وأن استيطان المعمرين الأوروبيين بها ضرورة حتمية لإحياء مواتها وزرع الحياة فيها، ونشر الحضارة الأوروبية للقضاء على الهمجية والتخلف.

أما المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي يوافق طبيعة هذا البحث والنتائج المرجوة منه .

وأما الفترة التي يغطيها البحث فهي القرن 19م، إذ أن الباب الثاني تناول آثار ثلاثة أدباء كلهم عاشوا في بحر هذا القرن ونظر كل منهم للجزائر على أنها صحراء بلد الغرائب والعجائب .

اسأل الله تعالى أن يكون قد وفقني في بعض ما أصبو إليه ، والله المستعان، وهو نعم المولى و نعم النصير .

المدخل

صورة الجزائر في المخيال الفرنسي قبل الاحتلال :

أصاب الوهن أوصال الإمبراطورية الإسلامية، فضعفت السلطة المركزية في بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية إلى أن سقطت على يد المغول سنة 1258 م، وهكذا كان الحال في شمال إفريقيا الذي لم يعرف دولا مستقلة ثابتة الحدود، وإنما مرت عليه دول وإمارات مختلفة سلطاتها الفعلية لا تتعدى حدود العاصمة والمدن الكبرى، فلم تكن حدودها واضحة المعالم إذ كانت تمتد وتتقلص قوة وضعفا، لذلك لم يشعر المغاربة بحدود تفصل بينهم خاصة سكان المناطق الواقعة على الحدود بين هذه الدويلات، و لم تعش هذه الإمارات والدويلات وحدة فعلية إلا في ظل الدولة الموحدية التي قامت حركتها على يد محمد بن تومرت، وجسد قيامها وقوتها بانيها ومؤسسها عبد المؤمن بن علي الجزائري.

بسقوط الدولة الموحدية سنة 1263 م وانقسام المغرب العربي إلى دويلات ثلاث :الدولة الزيانية بالجزائر، والمرينية بالمغرب والحفصية بتونس،"انتهى الإنسان المبدع المفكر" كما قال الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله في كتابه "وجهة العالم الإسلامي"، رغم أن وحدة المغرب العربي تعتمد على عوامل مشتركة بين أقطاره وشعوبه أهمها :

– العامل الجغرافي والبشري والديني و اللغوي والتاريخي :

ترتبط بلدان المغرب العربي المختلفة بسهل ساحلي يمتد إلى مراكش،تليه مباشرة سلسلة جبال الأطلس التلي، ثم النجود العليا أو الهضاب التي تتميز بمناخ قاري جاف،وأخيرا سلسلة الأطلس الصحراوي فالصحراء الكبرى .

تجمع الدراسات التاريخية والسوسيولوجية على أن الأمازيغ هم سكان المغرب العربي الأوائل والذين سماهم الرومان بالبربر لأنهم لم يكونوا يتكلمون اللغة الرومانية، امتزج البربر بالعرب بعد الفتح الإسلامي بعد أن اعتنقوا الإسلام طواعية لما عرفوا فيه من مساواة وإخاء وعدل، "فتعرب الكثير منهم وحافظت قلة منهم على طابعها البربري مع تمسكها بالدين الإسلامي" [1]، وبذلك أصبح سكان المغرب العربي مسلمين ينتسبون إلى العروبة كما ذهب إلى ذلك الشيخ عبد الحميد بن باديس –وهو أمازيغي– في وضعه معادلة جامعة مانعة تخص سكان الجزائر"شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب" ولعل هذه المقولة تنطبق على سكان المغرب العربي من ليبيا إلى موريتانيا.

ابتلي المغرب العربي على طول التاريخ بوجود استعماري شبه دائم، فقد عرف سكان هذه المنطقة الوجود الفينيقي ثم الروماني البيزنطي والوندالي ثم الروماني ثانية غزوا واستعمارا استيطانيا لازالت بعض آثاره قائمة حتى اليوم، ثم جاء العرب فاتحين مبشرين بالإسلام، فتلاحم السكان الأصليون مع العرب دينيا ولغويا ومعيشيا، واختلطت الدماء بالمصاهرة وعاش الجميع في مناخ يعبق بأريج سماحة الإسلام وإبداعات العقل العربي الإسلامي، كل هذه العوامل وغيرها كونت من المغرب العربي قطعة واحدة وشعبا واحدا –وان قسمته الظروف حديثا إلى دويلات متنافرة– لا يشعر المرء فيه باختلاف بين أرجائه المتعددة إلا إذا كان دقيق الملاحظة، وذلك في أمور بسيطة جدا...كالفرق بين لهجات المناطق البعيدة عن بعضها البعض والأطعمة أو اللباس، أما الأمور الجوهرية كالسمات الجسمية –على الخصوص– أو اللغة أو الدين أو التقاليد العامة أو نمط الحياة اليومية، فلا خلاف فيها بين مختلف شعوبه .

يقول سمير أمين بأنه خلال هذا التاريخ لا يمكننا القول بوجود ثلاث دول :مغربية، جزائرية، تونسية، حسب المعنى الحديث للكلمة، ففي كل دولة عناصر الاختلاف قائمة رغم

---

[1]-أنظر عبد الله شريط ومحمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ ،ط1، مكتبة البعث، 1965.

الروابط المشتركة كالدين واللغة والأصل الأمازيغي، إلا أن نمو الضمير الوطني عرقل الإحساس بالانتماء للمجموعة الإسلامية أو العربية على الأقل[2] .

قبل مجيء المسيحية مع الاحتلال الروماني للمغرب العربي عبد سكان هذه المنطقة آلهة وثنية،ثم اعتنقوا المسيحية التي بزر منها رجال عظام أمثال القديس أوغستين ST Augustin[*] والكاتب أبوليوس.

أما الخط الذي كانت شعوب المغرب العربي ترسم به لغتها فقد كان **التيفناغ** قبل الاحتلال الروماني، ثم فرضت عليهم اللاتينية بعد الاحتلال التي أصبحت اللغة الرسمية في الإدارة والمعاملات، وحلت بعدها العربية مع الفتح الإسلامي، فبرز في هذه الحقبة رجال عظماء كثيرون من الأمازيغ ألفوا باللغة العربية نذكر منهم على سبيل المثال لا للحصر العلامة **ابن معطي الزواوي** مؤلف الألفية قبل ابن مالك ، وصارت الأمازيغية لهجة في مناطقها الأصلية، وبعد أن جاء العثمانيون لرد هجمات الأسبان على سواحل وثغور المغرب العربي بعد سقوط غرناطة سنة 1492 م ومطاردة المسيحيين للموريسكيين في دول اللجوء. لم يفرض العثمانيون لغتهم إلى أن جاء الاستعمار الفرنسي الاستيطاني الذي فرض اللغة الفرنسية بالقوة، والتي احتلت الصدارة في جميع المعاملات و لم تكتف فرنسا بفرض لغتها بل سعت إلى محو عناصر الهوية العربية الإسلامية وإحلال مكانها مقومات وعناصر الهوية الأوروبية .

ولما جاءت فرنسا وضعت الحدود والقيود بين أقطار المغرب العربي المختلفة،فقد كان الوجود الفرنسي استعمارا في الجزائر وحماية في تونس والمغرب الأقصى، كل ذلك تحت سياسة واحدة في مختلف المجالات اقتصاديا وثقافيا، ركزت على عملية استيطان واسعة لكل شذاذ الآفاق من الأوروبيين بغض النظر عن أعراقهم وأصولهم ولغاتهم وانتماءاتهم الثقافية والدينية.

---

[2] - Samir Amine : « le Maghreb moderne » ,Ed de minuit ,paris ,1970,p 90 .

[*]- ST Augustin : القديس أوغستين من مواليد تاغست سنة 354م، مات بعنابة في 430م ، له مذهب فلسفي هو الوجودية المؤمنة.

بعد دخول فرنسا إلى الجزائر استعمل الجزائريون "كلمة "رومي" نسبة إلى الروم المستعملة في المشرق العربي للدلالة على الأوروبيين بصفة عامة وخصوا بها الفرنسيين،والى جانب هذا المصطلح ظهر مصطلح آخر وهو الكافر، فكل أوروبي كان في نظرهم كافرا بالضرورة لأنه غير مسلم"[3]، وخصوا بذلك المسيحيين لأنهم لم يعتنقوا الإسلام كما فعل سكان المغربي، أما اليهود فكانوا يسمونهم يهودا ويصفونهم بأقذع الصفات -الجبن والبخل والنفاق والربا - وقد عكس الأدب الشعبي هذه الصفات على الملأ، ورغم أن لليهود قدرة على التكيف مع المجتمعات التي يعيشون بها بارتدائهم الزي المحلي وتعلم اللهجات والتنكر للتغلغل في أوصال المجتمع ومع ذلك فان الجزائريين والمغاربة بعامة كانوا يعرفونهم ويفرضون عليهم أنماطا من التصرف ومن العيش، إذ كانوا يجبرونهم على العيش في حارات سميت في المدن والقرى "بدرب اليهود"، ولذلك كانت مصطلحات كافر ورومي أو فرنسي أو طلياني أو مالطي أو اسباني تعني معنى واحدا وإن اختلفت المسميات، ويقصد بها **الآخر** الذي لا ينتمي للمجتمع ويختلف عنهم عرقا وعقيدة ولغة وحضارة، فهو الغازي بامتياز الذي يجب النفور منه ومقاومته ودحره، يأخذ هذا التصرف جذوره من الحروب الصليبية الأولى والثانية وكذلك من غزوات الأسبان المتلاحقة للموريسكيين الذين فروا بجلودهم بعد سقوط غرناطة وانتهاء ملوك الطوائف بالأندلس .

كان سكان المغرب العربي بعامة يجهلون الكثير عن فرنسا، كما كان الفرنسيون يجهلونهم، حيث كان الفرنسيون يتصورون المغاربة غلاظا متوحشين يعيشون على الطبيعة في الغابات، لذتهم الوحيدة القفز والرقص[4](قصد بهم المؤلف سكان المغرب الأقصى لكنه قول ينطبق على جميع سكان المغرب العربي).

وكان الفرنسيون يتصورون منطقة المغرب العربي أرضا للبرابرة Barbares في القرن 16 م وتعني التوحش والهمجية، فقد كتب أحدهم[*] بعد أن وقع أسيرا في يد القراصنة عندما كان

---

[3]-أنظر أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ،ط3، الجزء الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.

[4] - Lahjomri Abdeljelil : « l'image du Maroc dans la littérature française », SNED, Alger, 1973,p :17 .

[*] - مؤلف مجهول كتب هذا النص سنة 1785 بعنوان Voyage dans les états barbaresques أنظر Charles Taillart

الأسطول الجزائري العثماني يسيطر على البحر المتوسط قائلا :"إن الإنسان الفيلسوف الذي يجهد نفسه لمعرفة عادات مختلف الشعوب في الكون، لاستخلاص العبر المفيدة للإنسانية يصرخ متألما معي هنا في مواجهة الصعوبات التي لا تطاق والتي تعيقنا عن السفر كملاحظين لهذه المناطق البربرية التي تربطنا بها علاقات غير وفية وغير سوية، كل هذا يساهم في ابتعادنا عن هذه الربوع، إن المسافرين أنفسهم الذين تحدوهم الرغبة الطبيعية في المعرفة، مجبرين على التوقف والعدول عن الدخول إليها، لأن كل شيء يخيفهم ...الظهور المفاجئ للعرب المتشردين يحرمهم من الحرية التي هي من نعم الحياة"[5].

في منتصف القرن 17م كان أحد رجال الكنيسة الكاثوليكية في مهمة في الجزائر، وفي أحد الأيام مر بشارع غير آهل بالمارة وصادف في طريقه خمسة شبان ولاحظ من بعيد أنهم ينظرون إليه نظرة حقد واحتقار وعندما توسطهم بدؤوا يبصقون و لم يتردد أحدهم في أن يبصق على وجهه و لم يجد القديس ما يقوله سوى أن يمسح وجهه.

وفي بداية سنة 1830 جنحت سفينتان فرنسيتان في شواطئ منطقة القبائل فألقي القبض على بحارتها الذين كان عددهم يفوق المائتين قتل نصف عددهم والباقي سيق إلى العاصمة في أفواج منفصلة، وعلى طول الطريق لم يتلقوا إلا التهديد والسب والضرب، وكانت النساء أكثر شحناء من الرجال ويذكر نائب قائد السفينة بونار Bonard "رأيت أكثر من مائة رأس مخضبة بالدماء مطروحة أرضا تطأها أقدام هؤلاء السكان الدمويين، وقد كانت مقطعة ومشوهة بطريقة بشعة، وقد أعلن وصولنا بمزيد من التهديد والسب خاصة من طرف النساء"[6]. ويضيف أن المساجين كانوا أكثر أمانا في السجون أحسن من أي مكان آخر، إن ربان سفينة دوقة بري la duchesse de Berry الذين فقدوا في ضواحي منطقة القبائل أبيدوا عن آخرهم وقد نجا منهم بحار واحد الوحيد الذي بقي على قيد الحياة وبالرغم من أن إصاباته كانت خطيرة ألا أنه

« L'Algérie dans la littérature française »,stalkine,Reprints ,Genève,1999,p1.

[5] - نفس المرجع ، ص1 .(النص من تعريب الباحث) .

[6]- نفسه، ص 2 .

"حول وهو يحمل رأسي صديقيه بين يديه، عاش مرارة لا مثيل لها لأن السكان كانوا يجبرونه على تقبيلهما رغم تشوههما" [7]، انه بلد غير مضياف، يتميز ببربرية متوحشة وبفوضى مطلقة في البوادي.

إن تجمع الأهالي يثير في المسيحيين الحقد الديني، التعصب المطلق والضغينة التقليدية ضد شعوب أوروبا التي تذكرهم بالحروب الصليبية أو بقرصنة المسيحيين على شواطئ المتوسط وخاصة الازدهار الذي عاد على الدولة البربرية نتيجة تجارة الرقيق من المسيحيين، كلها تساهم في وقوف سكان المغرب ضد الكافر، لذا امتنع المسيحي عن زيارة المناطق البربرية طواعية عدا بعض التجار الذين كانوا في عاصمة الجزائر يمثلون الدولة الفرنسية وفي مدينة القالة لصيد المرجان.

قد كتب القديس L'abbé Poiret "إن العرب اليوم يكرهوننا بدون أن يعلموا سببا لذلك، لكن آباؤهم يعرفونه جيدا، إن الحروب غير العادلة التي كان التعصب يعطيها اسم الجهاد الذي قام في الشرق أو في إفريقيا والذي ثور ضدنا أمما، ألحقت بنا أضرارا أخرى أكثر من إتباعها لدين محمد بينما نحن نتبع دين عيسى" [8].

قبل الاحتلال كانت توجد في الجزائر جالية متكونة من بعض العشرات من الفرنسيين تمكنوا من الإقامة بفضل نظام الامتيازات الأجنبية، في مدينة الجزائر وعنابة تحت تسمية "مرافئ المشرق" وهو اسم أطلق على الوكالات التجارية التي أقيمت في مدن الإمبراطورية العثمانية والتي حصلت على هذا الاسم من المرافئ التي كانت تتيح للسفن تفريغ ركابها وبضائعها، وكان نظام الامتيازات الأجنبية(صيد المرجان بالقالة) قد أقيم بمقتضى اتفاق بين فرنسا وسلطان القسطنطينية وكانت الجزائر تحت حماية العثمانيين الأتراك الذين كانوا يثيرون الرعب في أوروبا، وكان فرنسوا الأول ملك فرنسا(1515-1547) قد أثار استنكار جزء كبير من العالم المسيحي لأنه يقيم علاقات مع الأتراك.

---

[7]- نفسه ص 3.

[8]- L'abbet Poiret : « voyage au barbarie » ,lettre 1,cit in, Charles Tailliart : « voyage dans les états barbaresques Anonyme,1785,p: 5-6.

رأت فرنسا أنه يوجد في غزو الجزائر خير كثير يمكن أن يرضي السياسيين والعسكريين مثلما يرضي المستكشفين والعلماء والفنانين هذا بالإضافة إلى جميع أولئك الذين تسحرهم هذه البلاد بغموضها أو بحريمها كما هو حال Emyle de Masqueray في وصفه نساء الجزائر ذاكرا بالخصوص النساء النايليات. لم يكن الفرنسيون يجهلون الدور المتعاظم للجيش الانكشاري هؤلاء العسكر الفاسقين والماجنين وكذلك حالة الجالية الفرنسية التي تعيش في "اعتقال دائم"، وكان الجدل يدور حول هاذين الموضوعين في باريس التي تتلقى المزيد من التقارير الدبلوماسية ونداءات الاستغاثة.

فقد الداي حاكم الجزائر سيطرته على زمام الأمور في وقت تعاظم دور الانكشارية. لكن هل يمكن للثورة الفرنسية نصيرة حقوق الإنسان احتلال بلد آخر؟ انه سؤال جوهري، أجاب عليه الفرنسيون بالإيجاب، رأت الطبقة السياسية أنه إذا كانت أوروبا تتفوق ماديا على مناطق العالم الأخرى فذلك لأن حضارتها وقوتها قائمتان على العقل ولا يمكن لعدو العقل تنظيم الحضارة، والمقصود بعدو العقل هو الاستبداد، و الحال أن فرنسا بفضل العقل أصبحت على رأس الحضارة ألم يكن أول فيلسوف دعا إلى إعلاء شأن العقل وتتويجه سيدا وتاجا هو **ديكارت** صاحب مقولة **"أنا أفكر إذن أنا موجود"**، كانت هذه الصرخة الهادفة إلى إتباع العقل مدوية بعد أن سقط سلطان الذين في أوروبا وبعد أن فقد البابا سيطرته على الملوك والأمراء،كل هذا بفضل الإصلاحات الدينية التي قادها مارتن لوثر وبفضل انجازات الثورة الفرنسية العظيمة التي من مبادئها فصل ما هو سياسي عن ما هو ديني.

كان أول خطاب وزع على سكان مدينة الجزائر عشية احتلالها في 5جويلية 1830م كتبه سلفستر دوساسي وهو أحد أعمدة الاستشراق، وكان في طياته "السم في الدسم" وينم عن معرفة جيدة بالمكونات الأساسية السياسية والاجتماعية منها والثقافية، واحتوى عبارات وألفاظا صوفية خاصة أن مترجمه أو بالأحرى كاتبه كان ملما باللغة العربية وبنفسية الأهالي الموجه لهم، إذ طلب منهم مساعدة الجيوش الفرنسية لأن هدفها تخليصهم من السيطرة العثمانية، وتعهد الخطاب

باحترام الدين الإسلامي وقيمه وتشريعاته ورموزه وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم، ولمعرفة الكاتب بالتركيبة القبلية للمجتمع وجه هذا الخطاب في أغلبه للمشايخ والأعيان والقضاة والأئمة ووصفهم بأصحاب النفوذ والاحترام لاستدراجهم وتليينهم. نشر هذا البيان في المجلة الأفريقية سنة 1862 صفحة 153 وما يليها باللغة العربية مع ترجمة بالفرنسية[9].

قبل أن يشد الفرنسيون الرحال إلى الجزائر وفي نهاية شهر ماي 1830م انتدب الكونت دي بورمنت العقيد المركيز دي كليرمونت تونير لكتابة البيان الذي ترجمه دوساسي إلى العربية الدارجة[10] .

بعد دخول فرنسا فشلت جميع المحاولات الرامية لتحطيم مقومات المجتمع الجزائري، ووجدت فرنسا نفسها وجها لوجه أمام مجتمع حسن التنظيم له حضارته الخاصة الشبيهة بحضارات المتوسط وان كان لا يخلو من عيوب، لكن حبه للحرية وتمسكه بالأرض، واتحاد كلمته، وأصالة ثقافته وصدق وطنيته ونبل مثله العليا، وهي كلها عوامل ايجابية جعلته يجابه الاستعمار الاستيطاني بثورات عديدة أهمها ثورة الأمير عبد القادر وثورة أحمد باي والمقراني والزعاطشة وأولاد سيدي الشيخ وبوعمامة كلها ثورات أصيلة قادها الجزائريون وكانوا وقودها، لكن عيبها أنها لم تكن شاملة على كامل الرقعة الجغرافية وحتى الانتفاضات التي جرت في وقت واحد لم تنسق جهودها، وفي أغلبها كانت محلية عدا ثورة الأمير التي حاولت أن تعم معظم القطر من بوغار إلى سعيدة إلى تلمسان، لقد حاول قائدها أن يؤسس دولة أنشأ لها عاصمة متنقلة وتبادل القناصلة والسفراء وحاول أن يعرف بثورته وشعبه، لكن القابلية للاستعمار التي تحدث عنها مالك بن نبي حالت دون ذلك.

يدخل غزو فرنسا للجزائر ضمن إستراتيجية نشر المسيحية وهو امتداد للحروب الصليبية الأولى التي جرت بين المسلمين و المسيحيين والتي لازالت مستمرة لحد الآن.

---

[9]- Revue africaine :1862 , p :153 ,réédité par OPU ,Alger , 1985.

[10]- د.أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978، ص198 .

خاطب الجنرال بورمون جنوده بعد استيلائه على مدينة الجزائر بقوله "لقد جددتم عهد الصليبيين"[11] كما خاطب شارل العاشر نواب البرلمان الفرنسي "لقد فتحت بوابة إفريقيا للمسيحية"، وكتب الرحالة الفرنسي بوجولا Poujoulat مذكرات ينوه فيها برسالة فرنسا التبشيرية، ويذكر أنه كان وثيق الصلة بالجنرال بيجو وأسقف مدينة الجزائر Mgr Dupuch، وأنه في مقابلة له جرت مع بيجو في منزله سنة 1842 تساءل بيجو "ماذا جئنا نعمل في إفريقيا"، فأجابه الرحالة:" لنواصل العمل الذي بدأه غود فروي Godefroy ولويس السابع وسان لويس، إن الحرب التي تقوم بها في إفريقيا هي حلقة من حلقات الحروب الصليبية[12] .

وما إن استتب الوضع نسبيا خاصة في المدن حتى بادرت فرنسا إلى سن قوانين هامة هدفها تدمير بنية المجتمع أهمها القانون المشيخي Senatus consulte سنة 1863م، غاية هذا القانون هو تجريد الأهالي من أراضيهم التي ورثوها أبا عن جد لأن الفرنسيين الغزاة اصطدموا بملكية أراضي العرش أو القبيلة ووجدوها صخرة تحطمت عليها كل طموحاتهم وأحلامهم، لذا هب الشعب كله ضد هذا القانون، فتعاقبت الثورات وأدركت فرنسا أن الأهالي لا يخضعون للقوة طواعية وكان لابد من إيجاد سبل أخرى لإدراك المقصد، فرأت ضرورة اشتراك المعمرين في هذا المسعى وفي ذلك كتب لاموريسيير Lamoricière يقول: "من أجل تحقيق هذا الهدف لابد من الاستعانة بالمعمرين الأوروبيين، وذلك أننا لا نستطيع على أية حال أن نثق ثقة تامة بالأهالي، فهؤلاء سيغتنمون أول فرصة ليتوروا ضدنا، فإخضاع العرب لسلطتنا إن هو إلا مرحلة انتقالية ضرورية بين حرب الاحتلال والفتح الحقيقي. الشيء الوحيد الذي يجعلنا نأمل أن نتمكن ذات يوم من تثبيت أقدامنا في الجزائر هو إسكان هذه البلاد بمعمرين مسيحيين يتعاطون الزراعة"[13] .

فقد صدق حدس لاموريسيير إذ اغتنم الأهالي الفرصة، فبمجرد أن دخلت فرنسا الحرب مع ألمانيا على منطقة لالزاس لورين سنة 1870م حتى أشعلها الجزائريون حربا شعواء تحت قيادة

---

[11]- مصطفى الأشرف : الجزائر الأمة والمجتمع، تر/حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983 .

[12] - Poujoulat :voyage en Algérie, pp 285-288 ، نقلا عن مصطفى الأشرف ، المرجع السابق .

[13]- Lamoricière : « Compagne d’Afrique »,p :460 ، نقلا عن مصطفى الأشرف ، المرجع السابق، ص86.

المقراني الذي جرد هو الآخر من أراضيه الشاسعة رغم أنه كان باشاغا أي حاكما في الدولة الفرنسية. كل هذا لأن الجزائريين كانوا يحبون الأرض، وكانت الوطنية راسخة في البوادي والأرياف خاصة، فقد كتب إميل دوكافينياك Emile De Cavaignac في معرض حديثه عن حب الجزائري للأرض قائلا:"لعله من المهم أن نقدر تقديرا صحيحا الحالة التي آل إليها العرب من جراء الحرب، فالعربي حريص على كل الحرص على أرضه أكثر مما نتصور، والملكية الزراعية عند العرب قائمة على أسس ثابتة خلافا لما يعتقده البعض، وما أحوجنا أن نستفيد منهم في هذا المجال"[14].

كانت الملكية مشاعة لدى الغالبية العظمى من الجزائريين وكانت أراضي العرش أساس هذه الملكية التي تقوم أصلا على عدم تقسيم مناطق شاسعة من الأرض واستثمارها جماعيا، فالروح الجماعية التي تربط بين الفلاحين دفعتهم إلى أن يحاربوا من أجل الأرض ومن أجل البلاد بأسرها لأنها ملك مشترك للجميع. وقد تجسد هذا التآزر والتعاضد في عدة صور ووقائع منها أن "مدينة عنابة التي كان الأتراك قد سلموها بدون قتال، سدت عليها المنافذ مدة طويلة من طرف الفلاحين، وقد شارك سكان بجاية القبائل –رغم بعد المسافة– في الدفاع عن مدينة دلس الساحلية الواقعة في منطقة القبائل عندما هاجمها الماريشال بيجو سنة 1844م"[15].

تحسس الأدباء الرحالة خطوات الضابط العسكري الذي قاد الغزو في تخوم الصحراء التي أعجب بها العسكري والأديب والرحالة والمغامر وكل من كون صورة صحيحة أو غير صحيحة عن الجزائر هذا الفضاء الواسع.

إن ما كتبه الأدباء وما نقلوه من صور إلى مواطنيهم عن الجزائر، بعضهم تصورها صحراء قاحلة مأوى للذئاب والأفاعي وبعضهم تصورها فضاء واسعا يعج بالضواري والكواسر تصلح للصيد والنزهة حتى أن الرحلة كانت تقام ضمن قوافل عربات تجرها الخيول مرفوقة بالجمال وكل

---

[14] -Emile De Cavaignac in Austide Guilbert : « Colonisation de nord de l’Afrique » Ed :Paulin ,p :442.

[15]- مصطفى الأشرف : المرجع السابق، ص 89.

وسائل النقل المتاحة فهي بالنسبة للأوروبي وقتها رحلة تاريخية قد لا تتكرر ويجب اغتنامها، وبعضهم الآخر تخيلها أرضا جرداء قاحلة ساهم في تدميرها التخلف والجهل الذي أتى مع الفتح العربي ثم الغزو الهلالي، فيكون مجيء الأوروبيين ومكوثهم بها وحيازتهم للسلطة والثروة والسلاح المتطور أمر ضروري لإلحاق هذه المنطقة من جنوب المتوسط بالركب الحضاري الأوروبي لأن هذه الأرض في نظر بعضهم كانت رومانية ويجب أن تعود إلى أصلها وحالتها الأولى وان تعيش ضمن المناخ الأوروبي المتوسطي وعليها أن تغير من وجهتها بان تعطي ظهرها للحضارة الإسلامية وللوجود العربي الذي ساهم ـحسب زعمهم ـ في تأخرها، وكانت كتابات هؤلاء وأولئك حافزا على تشجيع الأوروبيين للمجيء إلى الجزائر والاستيطان بها، والقيام بكل المحاولات المشروعة وغير المشروعة لكي يصبح كل معمر مستوطنا معمرا يملك الأرض التي تدر عليه مالا وفيرا يرفع من قيمته الاجتماعية ويجعله من الطبقة المالكة التي كانت تصبو إلى أن تصبح حاكمة بعد زوال حكم العسكريين، حدث هذا في الشمال إذ أسس الأوروبيون بلديات يحكمها مدنيون، أما في الجنوب ونظرا للقلائل الدائمة و المستمرة والمتواصلة فإنها ظلت في اغلب الفترات مناطق عسكرية تشكلت فيها بلديات مختلطة وظل الحكم فيها للعسكريين.

صورة الجزائر كما رآها هؤلاء الكتاب الرحالة المغامرون هي ما يحاول هذا البحث أن يتطرق إليه متخذا من ثلاثة كتاب نموذجا للدراسة تطبيقا على بعض أثارهم الأدبية وهؤلاء الأدباء هم:

-الفونس دوديه من خلال عمله الأدبي طرطران دي طراسكون

-غي دوموبسان من خلال قصة علومة.

-لويس برتراند من خلال قصصه مستثمرة السيدة بيتي غان ودم الأجناس وسانقيس مارتيروم.

الباب الأول

الأدب المقارن

الفصل الأول

الأدب المقارن نشأته وتطوره

1- تعريف الأدب المقارن :

كلمة أدب معروفة لدى كافة الباحثين والمشتغلين به، وأما المقارن فإنه لا يقصد بها المقارنة بمعناها اللغوي بل بالمعنى التاريخي، وبذا يكون الأدب المقارن هو دراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب الأخرى الخارجة عن نطاق اللغة القومية التي كتب بها، فيكون مدلوله الأدب المقارن بالدرجة الأولى تاريخي ذلك أنه "يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة وصلاتها الكثيرة المعقدة في حاضرها أو في ماضيها ، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر، سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب ، أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي، أوكانت خاصة بصور البلاد المختلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى بوصفها صلات فنية تربط ما بين الشعوب والدول بروابط إنسانية تختلف باختلاف الصور والكتاب ، ثم ما يمت إلى ذلك بصلة من عوامل التأثير والتأثر في أدب الرحالة من الكتاب"[16].

وقد وضعت المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن مقياس اللغة كشرط أساسي فاللغة عند هذه المدرسة هي الفيصل بين الأعمال الأدبية موضوع الدراسة المقارنة، فلغات الآداب هي ما يعتد به الأدب المقارن في دراسة التأثير والتأثر المتبادلين بينهما، وقد واجهت الأدب المقارن معضلة هامة تتعلق بالواجهة ،" فمصطلح الأدب المقارن في صيغته العربية المترجمة حرفيا عن

---

[16]- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، 1983، ص 9.

الفرنسية يتكون من وصف وموصوف:لفظ أدب ولفظ مقارن -بفتح الراء- (اسم مفعول) "[17]، وبما أن اللغات تختلف في تركيبتها واشتقاقيتها فانه بمجرد الخروج من الفرنسية -ودائما ضمن مضمار اللغات الهندوأوروبية ذات الأصل الواحد- إلى الألمانية والانجليزية أو غيرهما ، يتحول الوصف من اسم مفعول إلى اسم فاعل أو إلى مصدر ، إذ يتحول مصطلح الأدب المقارن ثنائي اللفظ إلى ثلاثي اللفظ ، فهو تارة "العلم المقارن للأدب" كما شاع في الدراسات المقارنة الناطقة بالألمانية والايطالية والاسبانية ، وهو تارة أخرى وفي لغات أخرى "الآداب الحديثة المقارنة" أو " تاريخ الأدب المقارن" أو "التاريخ الأدبي المقارن"[18]، فهذه التسمية "الأدب المقارن" فيها إضمار، ولكنه اشتهر بها رغم أنها ناقصة في مدلولها ولكن إيجازها سهل تناولها كما ذهب إلى ذلك الدكتور محمد غنيمي هلال في دراسته المرجعية الأدب المقارن ، هذا عن معضلة الواجهة ، أما معضلة اللغة فان الدراسة المقارنة تصطدم بهذه العقبة ،فإذا كتب كاتبان بلغة واحدة هي العربية مثلا عد (بضم العين و تشديد الدال) أثرهما عربيا مهما اختلف جنس كاتبه ، فقد يكون الكاتب الأول فارسيا و الثاني مصريا ومادام قد كتبا بلغة واحدة هي العربية فان دراسة أثريهما لا تدخل ضمن الدراسات المقارنة فلغات الآداب هي ما يعتد به الأدب المقارن في دراسة التأثير و التأثر المتبادلين .

ولا تقف أهمية الأدب المقارن عند صدور دراسة التيارات الفكرية والأجناس الأدبية والقضايا الإنسانية في الفن والأدب، بل تكشف تأثر الكاتب في الأدب الواحد بالآداب العالمية،

---

[17]- ريمون طحان : الأدب المقارن والأدب العام، ط1، منشورات دار الكتاب اللبناني، 1983، ص9.
[18]- د.شايف عكاشة : نظرية الأدب ،ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1994 ، ص104.

وهذا ما عبر عنه الناقد الفرنسي Villemain في محاضراته التي ألقاها بالسربون عام 1827م عندما كان يؤسس للأدب المقارن الذي كان ساعتئذ يشق طريقه لأن يكون اختصاصا مستقلا، يضع أسسه ومنهاجه للحصول على استقلاليته ، وقد عبر عن هذا التأثير بأنه "السرقات الأدبية المتبادلة بين كل الدول"[19].

وقد كان الباحث الفرنسي جون جاك أمبير J.J.Ampère من أوائل من نبهوا إلى الأهمية التاريخية لدراسة الأدب المقارن، إذ لا يعد من حقل الأدب المقارن في شيء ما يعقد من موازنات بين كتاب من آداب مختلفة لم تقم بينهم صلات تاريخية حتى يؤثر أحدهم في الآخر، فالموازنة مثلا بين شوقي وحافظ أو بين أبي تمام والبحتري في الأدب العربي ليست من مجالات الأدب المقارن، وكذلك الموازنة بين راسين وفولتير أو راسين وكورني فتكون الموازنات أقل خصوبة وأضيق مجالا وأهون فائدة من الدراسات المقارنة، فميدان الأدب المقارن هو **البحث في قيام الصلات** أو هو بتعبير آخر **الصلات الدولية بين مختلف الآداب** ، "إذ لا يقتصر على دراسة الاستعارات الصريحة وانتقال الأفكار والموضوعات والنماذج الأدبية للأشخاص من أدب إلى آخر، بل يشمل أيضا دراسة نوع التأثر الذي أصبغ به الكاتب في لغته التي يكتب بها بعد أن استفاد من أدب آخر"[20].

---

[19]– د. محمد غنيمي هلال : المرجع السابق، ص11.
[20]– د. محمد رمضان الحربي: الأدب المقارن، منشورات ELGA 2002، فليتا–مالطا ، ص 13.

وفي عصرنا هذا اكتمل مفهوم الأدب المقارن وتشعبت أنواع البحث فيه، وصارت له أهمية بين علوم الأدب لا نقل أهمية عن النقد، وكان من الطبيعي أن تكون الظاهرة أسبق من المنهج أو العلم نفسه، فليس الأدب المقارن بدعا بين العلوم كلها وبخاصة العلوم الإنسانية واللغوية، فقد سبقت الظواهر الطبيعية ظهور العلوم الحديثة التي تدرسها وتعالجها،و هذا أمر طبيعي إذ تسترعي انتباه الإنسان الظاهرة فيهتم بها ويحاول أن يفسرها ،فيرصدها ويضع لها القواعد والآليات ومن هنا ينشأ المنهج ، فقد سبقت ظاهرة الزلازل ظهور علم طبقات الأرض وكذلك علم السيسمولوجيا (علم الزلازل) وكذلك الشأن بالنسبة للظواهر النحوية والبلاغية، فقد سبقت علوم النحو والبلاغة إذ جاء العلم لتقعيد تلك الظواهر واحتاج العلم نفسه إلى منهج خاص به يستمد أدواته من خصوصية الظاهرة التي يريد دراستها، وذلك لترتيبها وتصنيفها وصولا إلى وضعها في قوالب وقواعد مختلفة يسهل استيعابها وحفظها وتمثلها عند الحاجة .

فقد استرعت انتباه الإنسان القديم ظواهر طبيعية مختلفة ، كانت تحيط به و يلحق بعضها به أذى ، فاندهش أمامها فألف الأسطورة يحاول أن يفسرها ولكنه في الحقيقة كان يريد أن يحمي نفسه من عوامل الخوف الداخلية التي كانت تعتريه ،لكن بمرور الزمن ومع تطور الإنسان أصبح لا يندهش أمام الظواهر الطبيعية بل يرصدها ويحاول أن يفسرها تفسيرا يتماشى مع المنطق الذي بني عليه ، وهكذا و بعد أن كانت الفلسفة أم العلوم ،وبعد أن حدثت القطيعة الابستمولوجية وظهر العلم التجريبي الحديث استقلت العلوم عن بعضها البعض و أسس كل علم لنفسه منهجا .

فالأدب المقارن هو العلم المنهجي القائم على البحث عن أوجه التشابه والانتماء والأثر، لتقريب الأدب من باقي مجالات التعبير أو المعرفة، أو حتى تقريب الحقائق والنصوص الأدبية فيما بينها سواء أكانت متباعدة في الزمان أو المكان ، يكفي فقط أن تنتمي إلى لغات أو ثقافات متعددة، ليتمكن الباحث من وصفها أحسن، بل وفهمها ونقدها، وبهذا التعريف بدأت المدرسة الفرنسية في وضع الأسس المنهجية لهذا العلم إذ كتب كل من Claude Pichois و أندريه ميشيل روسو André Michel Rousseau كتابهما "الأدب المقارن" الذي أعيد طبعه سنة 1983 بعنوان "ما الأدب المقارن" بعد أن أنظم إليهماPierre Brunel[21].

يعد Macaulay Posnett أول من وضع اللبنة الأولى في أسس هذا العلم بكتابة "الأدب المقارن سنة 1886 تلاه بعد ذلك Paul Van Tieghem بكتابه الأدب المقارن سنة 1931.

وضع J.M.Carré مفارقة هامة بقوله "أن الأدب المقارن ليس مقارنة أدبية رافضا بذلك ما قد يجده المقارنون من تواز أو تماثل عند بعض الأدباء الفرنسيين مثل راسين " Racine" وكورناي "Corneille" وفولتير "Voltaire"وألفريد دي موسيه Alfred De Musset وألفونس دوديه " Alphonse Daudet" ، و لم يتمكن من وضع تعريف جامع مانع للأدب المقارن،و هي الصعوبة التي وجدها جل الأكاديميين ووقفت أمامهم عقبة كأداء ، حالت دون

---

[21]– أنظر:
Claude Pichois André Michel Rousseau et Pierre Brunel : « Qu'est-ce que la littérature comparée », Ed : Armand Colin, Paris, 1983, collection u, p : 150.

تحديد معالمه، وقد انعكست هذه الرؤية الضبابية في جل القواميس والموسوعات العلمية الفرنسية والأجنبية،التي كانت هي مصدر الغموض والمعضلة ، إذ أن أهم المعاجم قد ظهر أصلا قبل نشأة الأدب المقارن بوصفه تخصصا أدبيا حديثا بزمن طويل ، وقد زاد في هذا الغموض التطور الداخلي للأدب المقارن نفسه ، فبعد ظهور المصطلح اعتمد المعجميون في معظمهم على النظرة الفاصلة بين شقي المصطلح "الأدب" و"المقارن" ، ويرى الباحث الدكتور **بومدين جلالي** أن هذا الفصل لا يقدم تعريفا بقدر ما يقدم تشويها ،بحكم أن المقصود بلفظ "أدب مقارن" هو دراسة الإبداع الأدبي بمقارنته مع إبداع أدب آخر ، ويضيف مستنتجا أن المعاجم هي أول من أحدث الخلل في تعريفه[22] .والسؤال المهم الذي يجب طرحه ويفرض نفسه : هل يسبح الأدب المقارن في الغموض؟ فقد ظل هذا السؤال مطروحا إلى أن طرح رونيه اتيمبل René Etiemble سؤالا استفهاميا مفتاحيا لحل هذه المعضلة أو إزالة بعض غموضها " Si Comparaison n’est pas raison" دفع هذا السؤال بمؤلفي الأدب والمشتغلين به إلى التساؤل عن غاية هذا الأدب إذ لم تكن هي المقارنة، فهي بالضرورة لا غنى عنها للمقارن، وفي هذه الحالة فإن مبدأ المقارنة يتحدد بكونه فعل السيميائي والناقد أو المترجم الذي ينقل عمل المقارن الأول إلى لغته الأم على أساس أن الترجمة هي جهد يعيد الكتابة ويفضي إلى مبدأ المقارنة، وبفضلها يعيش المقارن خبرة صاحب العمل الأدبي والمترجم والناقد معا بنفس الواقعية والآلام[23].

---

[22]- د. بومدين جلالي : النقد الأدبي المقارن في الوطن العربي، ط 1 ، دار الحمراء للطباعة والنشر، 2012 ، الجزائر ، ص 13 .

[23]- أنظر:

René Etiemble: « Comparaison n’est pas raison » Collection « Les essais » Gallimard, 1963, Pp 80-99.

لقد حث René Etiemble في كتابه هذا المقارنين على ضرورة تعلم اللغات الشرقية والإطلاع على آدابها بغية توسيع آفاقهم الأدبية، وأيد مفهوم الأدب العالمي الذي جاء به غوته،وطالب بإجراء مقارنات أدبية على المستوى العالمي[24].

إن أهمية الأدب المقارن تكمن في الكشف عن أصالة الروح القومية في صلتها بالروح الإنسانية العامة، ذلك أن تقويم الأدب القومي تقويما سليما هو أمر غير ممكن إلا بالنظر إليه في نسبته إلى التراث الأدبي الإنساني جملة [25]، فهو يطبع الأدب المقارن بنزعة إنسانوية تمر حسبه بمرحلتين:

1 -قومية أولية ناتجة عن العمل الأدبي، تعقبها موجة ماسحة متعددة المشارب والأعراف (كوسمبوليت) Cosmopolite.

2 -قومية ثانوية تفضي إليها الأولى لتكون موروثا متنوعا في الوحدة، مردوفا بنزعة ومسحة من التماثلات والاختلافات.

فالأدب المقارن يفرض نفسه باستمرار على كل العالم ويمثل ظاهرة متطورة بالتطور النفسي السيكولوجي الاجتماعي المتزامن، فهو يصاحب صيرورة المجتمع وتطوره في حركية مستمرة ذلك أنه لا ينتمي إلى الحياة العقلية فحسب، بل إلى الحياة عامة بتعقيداتها وغرائزها العمياء، وبميولها المعطاءة وحركتها اللامتناهية[26].

---

[24]– أنظر: مدارس الأدب المقارن –دراسة منهجية– لـــ "سعيد علوش"، المركز الثقافي العربي، ص52.

[25]–أنظر: محمد غنيمي هلال ، المرجع السابق ، ص 13 .

[26]– أنظر: Pierre Brunel Claude Pichois et André Michel Rousseau, op cit , p29.

طرح Charles Athénée في سوق المقارنين إشكالية هامة وهي "الكل يفترض من الكل" وكان ذلك سنة 1835، إذ لا شيء يحيا منعزلا لأن الأدب المقارن في كل الأحوال يستند إلى مفهوم المقارنة، إذ يركز على التيمات والمرتبطات التي تكون النص الأدبي، ثم أنه ما من أدب قومي إلا ويتأثر بالآداب الأجنبية فمثلا تأثير الأدب الإسباني بالأدب الفرنسي أوتأثير الأدب الفرنسي في الأدب الألماني والإنجليزي في الأمريكي، فيكون مجال الأدب المقارن هو البحث عن تاريخ المبادلات الأدبية والدولية بالبحث عن أصول الآثار الفردية أو العامة.

ويرى فان تيجم Paul Van Tieghem أن الأدب المقارن هو "ذلك الفرع من الأدب الذي يعني بدراسة تأثير أدب في آخر أو تأثره به، فهو يتناول النتائج التي انتهت إليها تواريخ الآداب القومية فيكملها وينسقها ويضم بعضها إلى بعض في تاريخ أدل وأعم"[27].

---

[27] – أنظر: Paul Van tieghem : « la littérature comparée »,P.U.F , 1966

2- نشأة الأدب المقارن :

نشأ الأدب المقارن نشأة أوروبية خالصة ، تطور واكتمل مفهومه وتشعبت أنواع البحث فيه إلى أن أصبح اختصاصا مستقلا بذاته له أسسه ومنهجه وطرائق البحث فيه ، وسارت له أهمية لا تقل عن أهمية النقد الأدبي ،و قد ثمن الأوروبيون أهميته واستعملوه أداة لفهم الغير والتحاور معهم قصد خدمة مصالحهم الخاصة في أغلب الأحيان ، فهو جوهري لتاريخ الأدب والنقد في معناه الحديث ، لأنه يكشف عن مصادر التيارات الفنية والفكرية للأدب القومي ، لأن كل أدب قومي يلتقي حتما في فترات نهضته بالآداب العالمية فيتعاون معها قصد الالتقاء بالآخر ولفهمه .

لا تقف أهميته عند حدود دراسة التيارات الفكرية والأجناس الأدبية والقضايا الإنسانية في الفن ، بل انه يكشف عن جوانب تأثر الكتاب في الأدب القومي بالآداب العالمية ، بمدى التأثر بهاو التأثير فيها ، فإذا كان فيلمان Villemain قد وصفه بأنه السرقات الأدبية التي تتبادلها كل الدول كما سبق ذكره ، فانه أرحب أفقا في دراسة الصلات القائمة بين آداب الشعوب المختلفة من تلك السرقات الأدبية التي أشار إليها فيلمان ، ولا تكون الموازنات التي تقام بين شاعرين أو أكثر في اللغة الواحدة تدخل ضمن مجاله واختصاصه ، كما أن انعدام الصلات التاريخية بين كاتبين يحول دون قيام هذه الدراسة ، فالمقارنة بين راسين وشكسبير التي لم تقم بينهما صلات تاريخية تبدو مقارنة مستحيلة تحرمها أصول منهجه وقواعده ، كما أن المقارنة بين الشاعر الانجليزي ميلتون وأبي العلاء المعري لا تدخل في نطاق الدراسة المقارنة ،رغم أن الشاعرين يشتركان في

خاصيتين اثنتين ذلك أن كلاهما كان أعمى وأنتج أدبا تحت ظروف تلك العاهة

كما كانت لهما آراء متطرفة فيما يخص الدين ، ولأن الدراسات المختلفة لم تشر إلى قيام صلات

تاريخية بينهما ، فتكون المقارنة غير جائزة أصلا .

3- مراحل تطور الأدب المقارن :

مر الأدب المقارن كغيره من الآداب و العلوم المختلفة بمراحل عديدة ، نجملها في :

3-1 المرحلة الأولى : مرحلة التأسيس :

وكانت ابتداء من سنة 1812 تاريخ كتابة سوزان باسنيت Suzane Bassnett

مؤلفها "الأدب المقارن : مقدمة نقدية" ، كما حاضر آبيل فيلمان -كما سبق ذكره- في

السوربون عن علاقات الأدب الفرنسي بالآداب الأوروبية الأخرى ، مدرجا كل هذا تحت عنوان

"السرقات الأدبية التي تتبادلها كل الدول" ، وتلاه مواطنه جاك أمبير J.J.Ampère محاضرا في

الجامعة نفسها التي تعتبر المهد الحاضن لهذا الاختصاص عن التاريخ المقارن للفنون والآداب عند

الشعوب كلها ، وكان ذلك سنة 1830 ، ثم تلته مجموعة من المقارنين وهم على سبيل المثال لا

للحصر شارل فيلاريت Charles Filarete وجوزيف تيكست Joseph text وفيلمان

بلدنيسبر F.Baldenspergerفي فرنسا ، وهينري هلام Henry hallam وماثيو أرنولد

Mathew Arnold في بريطانيا ، وآرثير ريتشموند مارش Arthur Richmond Marsh في أمريكا ، وماكس كوخ Max Koch في ألمانيا، و غيرهم[28] .

و بتأسيس مجلة الأدب المقارن في فرنسا يأخذ هذا العلم طريقه الطويل و الشاق وسط وجهات نظر مختلفة حول أهميته و منهاجه ، و لاكنه لم يخرج عن الإطار العام الذي حدده فيلمان و آمبير ، الذي يقوم أساسا على مقاييس محددة هي اللغة و شرط قيام الصلات التاريخية بين الأعمال الأدبية المقارنة .

3–2 المرحلة الثانية : الاتجاه التاريخي التقليدي الفرنسي :

تبدأ هذه المرحلة بظهور مجلة الأدب المقارن السالف ذكرها ، و ظهور كتاب الباحث الرائد المؤسس بول فونتيغم "الأدب المقارن و الأدب العام " سنة 1931 ، و الذي حدد فيه الأطر المرجعية التي يجب أن لا يتجاوزها الباحث و التي تتلخص في :

1 – دراسة التأثير و الأثر بين أدبين محل الدراسة .
2 – اختلاف اللغة في العملين محل المقارنة .
3 – توثيق الصلات التاريخية (أي التأكد بالدليل العلمي من قيام هذه الصلات).

والملاحظ أن فونتيغم انطلق من مفهوم المركزية الأوروبية L'eurocentrisme ، متخذا أوروبا كمركز للعالم ، وهو المفهوم الذي تحول إلى إيديولوجيا استعمارية سوغت لأوروبا

28- بومدين جلالي ، المرجع السابق ، ص 14 .

احتلال العالم ونهب خيراته فيما بعد ، فهو يرى- أي فونتيغم- أن كل دراسة مقارنة يجب أن تنطلق من هذا المفهوم .

بعد فونتيغم وصل إلى هذا الحقل أعلام آخرون مثل جان ماري كاري Jean Marie Carré و شارل ديديان Charles Dedyan و ماريوس Marius و فرانسوا غويار François Guyard ، والذين اتفقوا على تعريف رأوه جامعا مانعا للاختصاص و هو : **"الأدب المقارن هو تاريخ العلاقات الأدبية الدولية "**[29].

3-3 المرحلة الثالثة : الاتجاه النقدي الأمريكي :

في سنة 1958 عقد مؤتمر الأدب المقارن بجامعة كارولينا بالولايات المتحدة الأمريكية ، بعد أن كان المؤتمر الأول قد عقد بمدينة البندقية في ايطاليا سنة 1955 .

في مؤتمر كارولينا حدثت أزمة أثارها الباحث رينيه ويلك René Wellek إذ نادى بالقطيعة مع الدراسات الفرنسية القائمة على التأثير والتأثر ، وتجاوزها إلى دراسات التوازي والتقابل بين الآداب والفنون ، بمعنى انفتاح المقارنة الأدبية على الفنون كالموسيقى وعلم النفس والفنون التشكيلية والنحث ، وهو المفهوم الذي كان قد طرحه سنوات قبل ذلك مع صديقه أوستين وارين Austin Warren في كتابهما المشترك الموسوم بنظرية الأدب الذي ترجمه إلى العربية د.محي الدين صبحي سنة 1972 . وقد انتقلت عدوى هذا المفهوم المحيط الأطلسي لتصل إلى فرنسا

[29]-- ماري فرانسوا غويار : الأدب المقارن، ت هنري زغيب، ط1 ، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 1978، ص 15 .

نفسها مهد الأدب المقارن ، إذ انبرى رونيه ايتيمنبل طارحا إشكالية Si Comparaison n’est pas raison" ، التي صب فيها انتقادات لاذعة على المركزية الأوروبية التي انطلق منها فونتيغم .

يرى المقارنون الأمريكيون أن الأدب المقارن هو" فرع من فروع الدراسة الأدبية الذي يعنى بالبنيات الجوهرية الكامنة وراء الظواهر الأدبية في كل زمان و مكان "[30].

3-4 المرحلة الرابعة : الاتجاه التاريخي المتطور :

ظهر في سنة 1983 في هذا الحقل كتاب مهم جدا بعنوان" **ما الأدب المقارن"** ألفه كل من كلود بيشوا Claude Pichois وأندريه ميشيل روسو André Michel Rousseau وبيير برونيل Pierre Brunel، طرحوا فيه مفهوما جديدا للأدب المقارن ، وقد جاء هذا الكتاب استجابة للحاجيات المعرفية على الساحة الفرنسية التي غير فيها الباحثون رؤياهم المنهجية بهذا الخصوص .

وفي سلسلة Que sais- je الفرنسية ظهر كتاب ل ايف شيفريل Yves Chevrel بعنوان الأدب المقارن وضع فيه مقاربة جديدة طورها دانييل هنري باجو Daniel Henri

---

[30]- جون فليتشر : نقد المقارنة ،ت. نجلاء الحديدي ، مجلة فصول ، ع3 ، سنة 3 ، 1983 ، ص 69 .

Pageaux سنة 1995 بقوله " الأدب المقارن هو الفن المنهجي الذي يبحث في علاقات التشابه ، والتقارب ، والتأثير ، وتقريب الأدب من مجالات التعبير والمعرفة الأخرى"[31] .

وقد خفف هذا الاتجاه من تزمت الاتجاه السابق وأضاف إليه بعض عناصر الاتجاه النقدي وبهذا أصبح الدرس المقارن هو مقارنة الوقائع والنصوص الأدبية فيما بينها المتباعدة أو المتقاربة في الزمان والمكان شريطة أن تكون لغاتها مختلفة.

3-5 المرحلة الخامسة : الاتجاه الاجتماعي الجدلي :

في المؤتمر الثامن للرابطة الدولية للأدب المقارن الذي عقد ب بودابست عاصمة المجر بأوروبا الشرقية آنذاك وجد هذا الاتجاه أعمال فيكتور جيرمونسكي Victor Zirmunski الذي اشتغل على الملاحم الشعبية منذ الثلاثينيات رحما له فأعلن رسميا في هذا المؤتمر عن ميلاد هذا الاتجاه الذي ارتكز أساسا على النظرية الماركسية التي لا تأخذ بالمعيار القومي في عملية المقارنة كما هو في الاتجاه التاريخي التقليدي ، بل تتعدى ذلك إلى آداب الأمم بلغاتها المختلفة في كل القارات .

شكل مؤتمر بودابست بداية لانفتاح تدريجي ساهمت فيه مجموعة من مقارني بعض الدول الشرقية كروسيا والمجر ورومانيا ، الذين انطلقوا في تعريفهم للأدب المقارن من التشابه التيبولوجي، وهو ما يسمح بدراسة نصوص أدبية متشابهة حتى ولو تباعدت الأزمنة والأمكنة واختلفت اللغات

---

[31] - Yves Chevrel : « littérature comparée »,ed :que sais –je,1953. أنظر

دونما تأثير ولا تأثر ، مرتكزين على مقولة علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا القائلة بأن "العقل البشري أمام مثيرات متشابهة يصدر ردود فعل متشابهة" وقد أكد فيكتور جيرمونسكي على أهمية دراسات التيارات الأدبية بوصفها ظاهرة دولية .

4 – اتجاهات الأدب المقارن :

و من خلال تتبعنا للمراحل المختلفة التي تطور من خلالها الأدب المقارن يمكن أن نستنتج أنه يسير في ثلاثة اتجاهات مختلفة كبرى عبر العالم :

4–1 الاتجاه التاريخي :

بدأت إرهاصاته من فرنسا التي كانت نقطة انطلاقه في القرن 19 م، واتخذ من الفلسفتين التاريخية والوضعية قاعدة له إذ زاوج بينهما فأصبح مدرسة لها أعلامها ومريدوها في كثير من البلدان ولغات العالم إلى أنها جابهت بعض المعضلات رآها البعض عيبا فيها " إنها من الناحية النظرية مثقلة بأعباء وفلسفات القرن 19 م كالنزعتين التاريخية والوضعية وأنها تتعامل مع النصوص الأدبية بصورة خارجية وفي منأى عن أدبياتها ، لا تتعامل مع الأبعاد الداخلية لتلك النصوص ، أي مع جوهرها الفني والجمالي "[32].

[32]- د.عبده عبود : الأدب المقارن مشكلات و آفاق ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،1999 ،ص 28 .

4-2 الاتجاه النقدي :

أحدث هذا الاتجاه قطيعة مع الاتجاه السابق ، لأنه نشأ وترعرع في أمريكا وانطلق منها ، ومعلوم أن الأمة الأمريكية تشكلت من خليط من الأجناس والاثنيات والثقافات ، وكان هذا العامل عنصر قوة دفع المجتمع الأمريكي إلى الأمام ، إذ لا يزايد أحد على أحد في مسألة الهوية أو مسألة الانتماء إلى الأرض ، فيكون مبدأ الكفاءة هو المبدأ الوحيد المعتمد للوصول إلى الوظائف والمراكز الحساسة في الدولة ، وهو ما يستدعي انفتاحا كبيرا على الآخر أدى إلى تحول هذا الاتجاه إلى مدرسة في الأدب المقارن تدعو إلى دراسة مقارنة تخطت النظرة التقليدية و دعت إلى مقارنة الأدب بالفنون والعلوم و حقول المعرفة الأخرى "لم تكتف بنقل اهتمام الأدب المقارن من العلاقات الخارجية إلى العلاقات الداخلية للأدب ، بل تخطت ذلك إلى المطالبة بأن تتفتح الدراسات المقارنة على نوع آخر من المقارنات ألا و هو مقارنة الأدب بالفنون و العلوم و حقول المعرفة و الوعي الإنساني الأخرى " [33] ، و قد عيب على هذا الاتجاه النقدي أنه اعتبر الأدب المقارن ليس اختصاصا مستقلا بذاته له قواعده و قوانينه التي تشكل ذاتيته و تميزه عن الآخرين .

4-3 الاتجاه الاجتماعي :

قامت الثورة البلشفية في روسيا على فلسفة الجدلية المادية والماركسية خصوصا ، وحاولت أن تقيم مجتمعا يرى العالم بنظرة مغايرة قائمة على الصراع الطبقي ، وبعد الحرب العالمية الثانية انقسم العالم إلى معسكرين : شرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي وغربي بقيادة الولايات المتحدة

---

[33]- د.عبده عبود : المرجع السابق ، ص 49 .

الأمريكية ، وقامت الحرب الباردة، التي أراد منها كل معسكر أن يهيمن على أكبر عدد ممكن من الدول والشعوب ، وكان نصيب السوفيات أوروبا الشرقية وكثير من دول العالم الثالث التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار وتقود كفاحا تحرريا للقضاء على السيطرة والهيمنة والاستعمار الاستيطاني كما هو حال الجزائر ، وباتساع رقعة النفوذ السوفييتي انتشر هذا الاتجاه في انسجام مع المقولة الماركسية التي ترى أن الدور الحاسم في التطور الأدبي يكون للعوامل الداخلية ، أما العوامل الخارجية فهي عوامل ثانوية وغير حاسمة ، تتوقف فاعليتها على توافر الشروط الموضوعية الداخلية للأدب .

5 – التيمة والتيماتولوجيا :

التيمة هي الموضوعات التي يتناولها الأدب المقارن مادة له، وهي تساعده على بناء مخياله ، فهي كالأساطير والصور أي هي لبنات النص الأدبي التي ترسم معالمه وتصنع نسيجه.

أما التيماتولوجيا فهي علم دراسة التيمات، بحيث تسمح بفهم النص الأدبي وبشرحه بواسطة آليات ومفاتيح منهجية تساعد الدارس على تشريح النص و مقارنته بغيره من النصوص، لذا فهي تلعب دورا ذا أهمية في عملية فك شفرة النص.

الفصل الثاني

الصورائية

Imagologie

1– الميتوس و اللوغوس :Mythos Et Logos :

عجز الإنسان الأول عن تفسير الظواهر الطبيعية التي كانت تحيط به فألف الأسطورة لتفسيرها أو للتهدئة من روعه و من عوامل الخوف الداخلية ، و أدى به الخوف من الموت إلى خلق الصورة "اللوغس" ، لقد كان إبداع الصورة فيه يعتمد تقنية يدوية و حجرية بدائية ، وكانت الصورة محاكاة للطبيعة وللإنسان ، فلجأ الإنسان الأول إلى جداران الكهوف التي كان يسكنها لرسم الإنسان الذي يغادر هذا العالم لتخليده ، أنها احتفالية بمقاومة الموت بواسطة تخليد الإنسان، وكانت الصورة أيضا تصويرا للإنسان يحرث الأرض أويصطاد ما يأكل أويقاتل الحيوانات المفترسة التي تشكل خطرا عليه ، وكانت أيضا صناعة أقنعة لوحوش يخشى انقضاضها، أو لموتى يحتفل بذكراهم يريد تخليدها ، عبر صورة يريدها أن تكون أبدية إما مرسومة أو منحوتة لتتحول هذه المنحوتات مع مرور الزمن إلى أصنام معبودة آلهة تجسد الآباء والأجداد المؤسسين للقبيلة ومن هنا جاءت فكرة عبادة الطوطم ، لذلك يتبين أن الصورة قد تميزت في هذا العصر بمحاكاة محيطها الطبيعي وانتقلت شيئا فشيئا لتوصل بين عالم الأحياء وعالم الأموات .

لقد تحولت الصورة مع ظهور الطباعة إلى أداة يتم إخضاع البشر بها ،عبر استثمار المكانة والثقة التي يمنحها هؤلاء للصورة باعتبارها وقاية للذات ضد الموت وضد الشر وضد الأرواح الشريرة ، وهكذا صمد الخوف كباعث ومحرك للصورة بل كان الخيط الرابط بين عصورها المختلفة .

وبظهور المطبعة انتشرت القراءة والكتابة ، فبدأ الإنسان الغربي ولأول مرة يشعر بقوته وبتميزه ومكانته داخل الكون ، فانبرت فئة اجتماعية تقدم شحنات محركة على المستوى الاجتماعي ، أدت إلى تحرير طاقات كانت مقموعة ، فرفعت القيود وطالبت بمزيد من الحرية ورفعت شعار التوسع والهجرة والانتقال بحرية ، وهكذا ركب الإنسان الأوروبي البحر للوصول إلى أماكن وبلدان بعيدة لم يكن يحلم بها أو يعرفها أصلا ، وسمى هذه المغامرات البحرية بالاكتشافات الجغرافية والحقيقة أنه اكتشف نفسه واكتشف غيره من الشعوب وفي هذا الجو انبرى رونيه ديكارت يعلن قيام سلطة العقل بعد سقوط سلطان الدين بقوله " **أنا أفكر إذن أنا موجود** " وبهذه الصيحة توج العقل سيدا على المجتمع ، ووضع اللبنة الأولى للعقلانية من خلال دعوته لضرورة إتباع منهج في العلوم بكتابه "خطاب في المنهج" "Discours De La Méthode" .

يرى ريجيس دو بري "أن الإنسانية عرفت ثلاث قطائع **ميديولوجية** (نسبة إلى الميديا) : الكتابة ، الطباعة والسمعي البصري . وهي بمثابة قارات متباينة في تاريخ الصورة، الصنم، الفن والمرئي "[34].

الصورائية حقل من حقول الأدب المقارن وهو أحدث ميدان من ميادين هذا البحث كما يذهب إلى ذلك غي ميشو Guy Michaud الذي أشرف على العديد من الرسائل في هذا الاختصاص ، يسميها **علم الصورة** وينسبها للأدب المقارن، ونفس الرأي نجده عند كلود بيشوا

[34] - Debray (Regis) : « vie et mort de l’image -une histoire du regard en occident- » ,Ed. Gallimard, Paris,1992, P22 .

وأندري روسو اللذان يذهبان إلى أن دراسة الصور فرع حديث من الأدب المقارن، أما سيمون جون فيوضح علاقة صور الشعوب بالأدب المقارن بقوله: "إن التأثير الذي سنتحدث عنه مختلف لأنه ليس من نفس النوع، فلم يعد ثمة عمل أدبي يحدث تأثيرا بل شعب بأكمله، البلد كله يحدث التأثير، وأدباء شعب آخر يتلقون الصورة أو الظل[35].

تجمع كتب الأدب المقارن على صحة انتماء صورة أو صور شعوب في آداب الشعوب الأخرى إلى الدرس المقارن. سنة 1930 قدم اسكولي رسالة بعنوان "بريطانيا العظمى أمام الرأي العام الفرنسي في القرن 17م"، وفي سنة 1947 قدم جان ماري كاري رسالة بعنوان "الكتاب الفرنسيون والسراب الألماني 1800-1940" وجاء بعده ميشال كادو برسالة عنوانها "صورة روسيا في الحياة الثقافية الفرنسية، وكانت الرسالة التي قدمها ماريوس غوبيار أكثر وضوحا وتركيزا إذ عمقت هذا الاتجاه "صورة بريطانيا العظمى في الرواية الفرنسية من 1914 إلى 1940".

منذ بداية الستينات صارت معظم جامعات فرنسا تجيز رسائل تحمل مثل هذه المواضيع حتى أصبحت تعد بالمئات ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- رسالة ليون فاندوج سفير وعنوانها "أسطورة الزنجي وإفريقيا السوداء في الأدب الفرنسي".
- رسالة سيلفان ماراندون "صورة فرنسا في إنجلترا الفكتورية من 1878 إلى 1900".

---

[35]- Simon Jeune :« Littérature générale et littérature comparée »,essai d'orientation, lettres modernes, 1968, p49.

- رسالة شارلوط وردي بعنوان: "اليهودي في الرواية الفرنسية".
- رسالة لهجومري عبد الجليل: "صورة المغرب الأقصى في الأدب الفرنسي".
- رسالة أليس شرارا: "صورة الاستعمار الأسباني في الرواية الأمريكية من 1898 إلى 1950".

استطاع سيمون جون Simon Jeune ومن خلال هذا الكم الهائل من الرسائل الموجودة في الجامعات الفرنسية أن يحدد مسار نظرة الشعب الفرنسي إلى بعض الشعوب الأخرى من خلال الأدب الفرنسي مع التتبع لتطور تلك النظرة.

ففي أي ميدان تندرج صورة شعب لدى شعب آخر أو لدى أدباء الشعب الآخر من ميادين الدراسات الأدبية ؟

تنقسم صورة الشعوب إلى نوعين:

أ- صورة شعب في أدبه ولغته مثل صورة الفرنسيين في أدبهم أو صورة المرأة في الأدب المصري أو الأدب الجزائري أو صورة الزنجي في الأدب المصري وفي السنما المصرية الذي تصوره دائما بوابا في عمارة أو خادما طباخا في قصور الأغنياء والإقطاعيين، فهذا النوع من الدراسات لا يتعدى الإطار القومي واللغوي إذ لا يتعدى كونه يبحث فنيات الأديب في تناول موضوعه بالوصف والتحليل، إنها دراسات نقدية تدرس تلك الموضوعات من خلال المناهج النقدية المختلفة.

ب- وهناك صورة أخرى هي صورة شعب في أدب شعب آخر بلغة غير لغة الشعب المدروس والمقصود بذلك الموضوعات التي طرقت منذ زمن بعيد "كصورة الجزائر في الأدب الفرنسي" لشارل تيار Charles Tailliart [36]،و"كصورة الإنجليز وطباعهم في أدب فولتير"، وهي الصورة التي كونها فولتير عندما أقام بإنجلترا فترة من حياته إذ حلل طباع الإنجليز ورؤيتهم للحياة وللكون ، وهناك اطلع على ما كانت تنشره مجلة SPECTATOR عن الشرق وصورته فارتسمت في مخيلته تلك الصورة التي لم تفارق مخياله أبدا ، وعلى ضوئها كتب تلك القصص الرائعة التي كان يهدف بها إلى معالجة الأوضاع المتردية في مجتمعه متخذا الشرق معادلا موضوعيا لفرنسا التي كانت ترزح وقتها تحت وقع التخلف والجهل .

إن دراسة صورة شعب تساعد الشعوب على فهم بعضها البعض ، وتساعدها على التقارب والتعاون في مجالات مختلفة كما أنها تطهركل شعب من أوهامه وتصحح له صورا زائفة احتفظ بها في مخياله لغيره، وبذلك تستطيع الشعوب أن تجابه حاضرها ومستقبلها بطريقة موضوعية.

وتهدف هذه الدراسة إلى غرضين أساسيين :

أ- تحديد صور الشعوب لدى بعضها البعض وإظهار قيمتها الأدبية.

[36]-Charles Tailliart : « L'Algérie dans la littérature française », Thèse présentée en 1924, rééditée par Slatkine repints, Genève, 1999.

ب- إدراك الشعوب للأوهام التي تكونها حول بعضها البعض. وبذلك يكون الأدب المقارن عامل تقارب وتفاهم .

ومن الوسائل المساعدة على تكوين صور الشعوب عند بعضها البعض كثيرة أحدهما الرحلات، إذ أن المسافر يعود إلى بلده ومعه **صور** و **أخبار** و **حكايات** و **انطباعات** و **فيديوهات** و**أفلام** ، -خاصة في عصرنا هذا بعد اكتساح التكنولوجيا لجميع مناحي الحياة-، وأن أهم العوامل المساعدة أيضا على تكوين صورة شعب لدى آخر **الكتب** ، حيث يقرأ الناس عن بلدان تجذب انتباههم وفي أيامنا هذه –خاصة في الدول المتقدمة حيث العطلة مقدسة- يهيأ لها أسابيع بل أشهر قبل ، وكثيرا ما يلجأ المسافر إلى القراءة عن تاريخ الدولة التي ينوي زيارتها، فيكون صورة عنها وعن شعبها يقوم بتصحيحها أو التأكد منها عندما تطأ قدماه الأرض المقصودة، يضاف إليها المنشورات والإذاعات والمراكز الثقافية والسينما التي أضحت وسيلة هامة من وسائل الاتصال بين الشعوب، فالأفلام تعرض كثيرا من المناظر الطبيعية ونماذج حية من حياة الدول التي أنتجتها.

وأما الأنترنيت والفايسبوك والتويتر وغيرها، فقد أضحت وسيلة مباشرة تسهل عملية الاتصال بين الشعوب وتصحيح النماذج والصور الخاطئة الموجودة عند بعضها البعض قد تكون قريبة أو بعيدة عنها.

وتأتي الحروب وسيلة أخرى –رغم بشاعتها- تكون صورة شعب لدى آخر فقد ساهمت تلك الحملات العسكرية للرجل الأبيض في إفريقيا وآسيا والعالم الجديد في عملية الإبادة والإفناء

التي مارسها الغزاة الأوروبيون نتيجة الصورة الخاطئة التي كانوا قد كونوها عن الإنسان الإفريقي والآسيوي والهندي ، والتي تداركتها السينما الأمريكية وصورتها على بشاعتها بل أن بعض المخرجين صوروها من زاوية انتقاديه ووصفوها بالهمجية وحب الاستيطان واستغلال الأرض.

قد تعتمد صورة شعب لدى شعب آخر على نماذج بشرية تمثل الشعب وطريقته في العيش ونظرته للحياة، و هي أنواع :

- نموذج وطني يمثل شعبه مثل : العربي/ اليهودي، الإفريقي .

- فالعربي يقصد به المسلم سواء كان مسلما أو مسيحيا أو من الأقليات الدينية والعرقية التي تعيش في أقطار الوطن العربي ، المهم أنه يعيش على أديم هذه الأرض.

- أما اليهودي فإنه يقصد به كل من اعتنق اليهودية سواء كان يعيش في فلسطين أو في غيرها من دول الشتات ، المهم أن يكون متشبثا بالعقيدة الصهيونية و أن تكون أمه يهودية خاصة، و في قانون الجنسية الإسرائيلية تمنح لكل من كانت أمه يهودية حتى و لو كان من أب مسيحي أو مسلم يعيش في فلسطين أو في غيرها من دول العالم.

- وأما الإفريقي فإنه يقصد به كل من كان ذا بشرة سمراء سواء أكان يعيش في إفريقيا أو غيرها، وهي صورة تتقارب من الصورة التي كونها الجزائريون عن كل من هو أسود ، إذ يلقبونه بالعبد رغم أن العبد هو كل من كان رقيقا ، وهي صورة تدحرجت إلينا من عصور غابرة إذ كان العرب البيض والبربر والعثمانيون يشترون السود من إفريقيا رقيقا للسخرة عندهم ، وهي صورة

انحدرت إلينا أيضا من ثقافتنا العربية، ألم يهجو شاعر العرب ولسان حالهم أبو الطيب المتنبي كافور الأخشيدي حاكم مصر بأقذع الأوصاف؟ ، إذ وصفه بأبي المسك وخاطبه بقوله :

- تعجبني رجلاك في النعل... و إن كنت حافيا- أصبح الخصي إمام الآبقين بها — الحر مستعبد والعبد معبود- لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد — ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم إلا وفي يده من نتنها عود-، هذا هو حال كبير شعراء العرب وأحد فحولهم كان يخلط بين المركز الاجتماعي والقانوني وبين اللون فكافور كان حاكما لمصر وقتها و لم يكن رقيقا بأية حال من الأحوال.

إن صدق الصورة وتمثيلها للواقع كما هو أي مطابقتها للواقع أمر مستحيل، "فأكثر الصور صدقا هي تلك الناتجة على المعايشة اليومية والتجربة والممارسة" [37] وهي صورة تختلف عن الصور الأخرى لأنها تكونت بواسطة المعايشة والاحتكاك اليومي، وهي المحصلة عن طريق فرض الوجود أو القوة كما حدث لشعوب كانت رهينة الاحتلال فترة من الزمن ، فالصورة التي كونها الفرنسيون عن الجزائريين وباقي شعوب أقطار المغرب العربي (المغرب وتونس وموريتانيا) تكون واضحة أو أقرب إلى الوضوح لأنها نتجت عن الاحتكاك اليومي.

---

[37]- د.عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ط 1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1986، ص78.

"إن صدق الصورة ليست في مطابقتها للواقع أو نقلها له كما هو بل في دقتها في تعبير الأديب عند أحاسيسه وتصوراته نحو موضوع الصورة، بأسلوب أدبي مؤثر بإخلاص وصدق لمشاعره"[38].

فكلمة صورة في مفهومها العام والعادي تعني تمثيلا معقولا مطابقا للواقع أو انعكاس له، لكن الباحثين في هذا المجال تحدثوا عن صورة يقصدونها أي كل ما في الذهن حول ذلك الشعب.

إن التراكم المعرفي في ميدان الدراسات المقارنة استطاع أن يحدد بعض الأجزاء من ذلك الكل ويذكر بعض مكواته أي مكونات صور الشعوب "فهي تتكون عادة من الأنماط البشرية والأحكام المسبقة والإشاعات والطرائف والآراء والمشاهدات في إطار من السذاجة"[39].

فالصورة تمثيل يعتمد على معلومات شبه ثابتة ذات طابع عام ومعقول ولها شيء من الواقع الملموس، وهي تصور فردي أو جماعي تدخل فيه عوامل ثقافية وشعورية موضوعية وذاتية[40].

2- سيميائية الصورة :

إن للمجتمعات المختلفة لغات رمزية عديدة تفيدها في التفكير والتعبير عن ذاتها، والصورة هي إحدى هذه اللغات التي تساعدها إنشاء علاقات ما بين العالم الإثني والثقافي فهي في آن واحد تعبير عن مبادئ ثقافية وممارسة أنتربولوجية تشغل مكانة في الخيال باعتباره عالما رمزيا. ولما كان

---

[38]- نفسه، ص81.

[39]- Sylvaine Maradon : « L'image de la France dans l'Angleterre victorienne de 1848 - 1900», Ed.Armand colin,P aris, 1967, p 113.

[40]- نفسه ص 114 .

المخيال ينتمي إلى تنظيم اجتماعي وثقافي فإنه ينعت بالاجتماعي أي المخيال الاجتماعي وبما أن الصورة وسيلة تواصل فهي بالتالي علامة وتمتلك نفس وظيفتها[41].

يقول كلود ليفلي ستروس: أنه في إطار تطور الفكر الاستعماري الفرنسي فإن الآخر كان يتمثل في ذلك الوحش القادم من الغابة أو من الصحراء وهو تعريف يلقيه إلى هامش الطبيعة أو خارج الثقافة بحجة أن الآخر غير قابل للفهم ضمن معيارية الناظر. إن تعريف الآخر كمتوحش أو بربري هو الوحشية عينها[42].

إن كلمة العربي و البدوي و الصحراوي و الموري انعكاسات مرتجة لخيال غزير و مضطرب يعاني بإفراط من كثرة نزوات العصبية المرضية ، قصد إنكاره و الحط من قيمته و هويته و بالتالي إبعاده و إقصائه من محيطه ، كما أن الأدب الغرائبي لم يكف عن تفكيك فضاء العنصر العربي بتقنيات وحضارة العالم الغربي التي ما لبثت تغزوه و تجزؤه ، و هو ما يسميه هنري باجو Henri Pageaux بتجزئة الفضاء La fragmentation de l'espace ، و على هذا الأساس فان هذا الخطاب يشعرنا بأن كلمة "العربي" و"ابن البلد" و"الساكن الأصلي" و"المور" و"المشرقي" ليس له وجود في هذا الإطار ، إذ أن الخطاب الأدبي الغرائبي يؤكد لنا ذلك مثلما هو الأمر في الآداب المنتجة أثناء فترة الاحتلال .

---

[41] - نفسه ص 116 .

[42]- Claude Levis Strauss : « Rencontre et exposition sur les littératures coloniales anthropologie structurale », Paris, Plon, 1977, p452.

إن المعنى الهلامي لمصطلح صورة في الأدب يجعلها تنساب في أي قالب (Stéreotype) لتأخذ أبعاده، بيد أن القالب لا يعبر عن دلالات بل يقوم مثل مؤشر أحادي المعنى، وبالتالي فهو دليل على انسداد الثقافة لأنه في هذه الحالة يتقلص التعبير الثقافي رسالة (Message) واحدة وحيدة، و يؤكد هنري باجو على أن القالب **(Stéréotype)** يمنح الحد الأدنى من المعلومات مقابل حد أقصى من التواصل ويميل إلى التعميم[43].

وهكذا كانت جل الكتابات الاستعمارية حيث كانت تدعي وصف الآخر غير أنها في الواقع انغلقت على نفسها في انطباعية غرائبية ومقاربة أثنوغرافية بحتة لا ترى من فضاء الآخر إلا الصحراء والشمس والجنس انطلاقا من معيارية رفيعة مزعومة.

إن الصورة هي مادة اتصال تقيم العلاقة بين المرسل والمتلقي ، فمرسل الصورة لا يقترح رؤية محايدة للأشياء ، والمتلقي "يقرؤها" انطلاقا مما يسميه الباحث الفرنسي " جون دافينيو " بالتجربة الجمالية والمخيال الاجتماعي ، ذلك لأن الصورة لا تخاطب حاسة البصر لدى المتلقي فقط ، بل تحرك حواسه وأحاسيسه ، وميراثه العاطفي والاجتماعي .

وتتحدد بلاغة الصورة بما تتمتع به من مواصفات فنية وتعبيرية وجمالية ،بحيث تعطي الموضوع حيوية ومصداقية في تجسيد ما يريد الكاتب تجسيده ، و على هذا فان فهم الصورة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بثقافة الفرد ، وشأنه في ذلك شأن فهم اللغة اللفظية ، فعلى قدر خبرات الفرد يكون استعداده لتفهم مضامين الصور التي تعرض عليه ، وبتعبير آخر فإن المعنى الذي تثيره الصورة في

---

[43]- Daniel Henry Pageaux : « Littérature portugaise, littérature comparée et théorie de la littérature », ed. Lisbonne, 1970, p.67.

ذهن الإنسان ليس موجوداً كاملاً وبالضبط في الصورة ، بل يكون جزء منه موجوداً في الشخص المشاهد لها ، وأن الصورة بما تحويه من مكونات ما هي إلا مثير يستدعي هذه المعاني ويرتبها.

3 – الترجمة والاقتباس:

الترجمة من لغة إلى أخرى لعبت دورا حيويا في تكوين صورة شعب لدى آخر، وكانت أساسا فاعلا في تكوين الأدب المقارن عند العرب وعند غيرهم من الشعوب الأوروبية التي أسست لهذا العلم ووضعت له مناهج ومقاييس دعت إلى إتباعها والاحتكام إليها.

ومن الأمثلة الرائعة في هذا الميدان هو ترجمة نص ألف ليلة وليلة التي قام بها Antoine galland والتي صدرت تباعا من 1704م إلى 1717م حيث أخذت ترجمة هذا النص الذي عد من عيون الأدب الشعبي فيما بعد. أخذت صدى أدبيا تجاوزت شهرته الآفاق ،فانبهر به الكتاب الأوروبيون : فولتير ومونتيسكيو وكربيون الابن وديدرو وغيرهم من رواد الأدب الفرنسي الذين قلدوا أسلوب "الليالي"، فلقد استوحى بعضهم من عنوان المجموعة العربية أسماء لكتبهم مثل "ألف ساعة وساعة" و"ألف سهرة وسهرة"،وقد اتفق النقاد على تسمية هذه القصص والروايات المقلدة بـــ "ملحقات ألف ليلة وليلة"[44].

وكانت ترجمة نص "ألف ليلة وليلة"حديث المثقفين ورواد الصالونات، فمارس هذا النص سحره على الفرنسيين ومن هذا المعين استلهم فولتير تلك الأجواء الشرقية التي

---

[44]– د. شريفي عبد الواحد : ألف ليلة وليلة وأثرها في الرواية الفرنسية في القرن 18م، ط1، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2001 ص89.

أدت إلى نجاح قصصه المختلفة أهمها "زاديق وأميرة بابل". و على نفس المنوال ألف مونتسكيو Montesquieu كتابه"الرسائل الفارسية"، فاتخذ لنفسه محاورا افتراضيا خاطبه على طول تلك الرسائل لتعليم شعبه و تهذيبه.بمثل عليا استلهمها هو الآخر من الشرق[45]. وكتب الشاعر الفرنسي الشهير فيكتور هوجو كتابه (les orientales) مستمدا نفحات الشرق ونسماته مادحا مبجلا لروحانية الشرق بعد أن بدأت نتائج الثورة الصناعية الأولى تؤتي بشائرها ملوثة للطبيعة.

تنافست دور النشر طيلة القرن 18م على طبع مثل هذه الروايات والقصص المقلدة لليالي، وكانت طبعات هذه الكتب تنفذ من الأسواق بسرعة البرق ،وكان أول من سعى إلى تقليد أسلوب ألف ليلة وليلة المستشرق بيتي دولاكروا Petit De Lacroix ألف "سلطانة فارس والوزراء" عام 1707 م ،ثم ألف "يوم ويوم" التي زعم أنه ترجمها عن مخطوط فارسي أهداه له أحد أصدقائه أثناء إقامته في أصفهان.

أما كتاب "ألف يوم ويوم" فشبيه إلى حد بعيد بألف ليلة وليلة،وقد رأى بعض الباحثين أن المؤلف يكون قد نسجها من خياله زاعما أنه ترجمها من مخطوط فارسي مجهول المؤلف، ثم يضيفون أنه كان يبحث عن الشهرة مثل التي حظي بها غالان، ويؤكدون في هذا الاتجاه بأنه استعان بالأديب لوساج (Lesage) المعروف بأسلوبه الممتع في تحرير هذا النص،بالإضافة إلى أنه

---

[45]– أنظر: Montesquieu : « Lettres persannes » Booking International, Paris, 1993.

اختار له إطارا شبيها بإطار الليالي، إذ أن بطلها شهريار قرر الانتقام من المرأة بعد أن آلمته خيانتها لكن شهرزاد هزمته بجاذبيتها في فن القصص، أما بطل قصة "ألف يوم ويوم" الأميرة فارينكار فهي التي عقدت العزم على قتل الرجال بعد أن تأكدت من غدرهم بواسطة حلم مزعج رأت فيه أن أحد الغزلان يتخلى عن غزالته التي سقطت في فخ صياد،فالإطار الزمكاني واحد وكلا القصتين تجري أحداثها في حقبة تاريخية واحدة وكذلك المكان، إذ أن الأميرة فارينكار هي ابنة إمبراطور كشمير أي أن أحداثها تجري في فضاء واحد هو الشرق بسحره وغرائبيته.

لقد انتقدت ترجمة غالان لنص الليالي كثيرا حيث وصف نقاد كثيرون (مارديس، ليتمان وماكدونالد) بأنها لم تكن أمينة وأنه ترجمها بتصرف إذ نقحها من اللقطات الجنسية العارية وبسط الحكايات وغيرها وحذف الأبيات الشعرية الواردة فيها.

ومع ذلك يبقى هذا النص خالدا إذ نفخ روحا ثقافية جديدة في فرنسا خاصة وفي أوربا بعامة،و"ليس من قبيل الصدفة أن تتحول الليالي إلى مصدر خصب للخيال الفرنسي في القرن 18م... فالأديب الفرنسي الذي كان متعطشا للتجديد والانفتاح، قد وجد ضالته المنشودة في الحكايات الشهرزادية بوصفها ينبوعا يأسر العقول والقلوب"[46].

وقد رافقت الترجمة النصية الترجمة الاقتباسية غير المصرح بها في اتجاه عكسي،إذ تبلور منذ عصر النهضة العربية الحديثة هذا الاتجاه عند بعض الكتاب والجماعات "مثلما حدث عند جماعة الديوان على المستوى الفردي والجماعي إذ استلهم عباس محمود العقاد وعبد القار المازني وعبد

---

[46]- د.عبد الواحد شريفي، المرجع السابق، ص99.

الرحمن شكري الكثير من خصوصيات الثقافة الأنجلوسكسونية وبثوها في إنتاجهم الإبداعي والنقدي"[47].

وقد اقتبس بعض أساطين الأدب المقارن وعلى رأسهم د.محمد غنيمي هلال حين تأليفه كتابه "الأدب المقارن" آراء باحثين فرنسيين وأوروبيين مترجما ناقلا نقلا حرفيا من غير إحالة على المصادر وبإضافة بعض الأمثلة التي تعمل على نقل القارئ من قارة إلى قارة لتتويهه.

يؤرخ لبداية النهضة العربية بحملة نابليون على مصر سنة 1798م وما تلاها من استعمار فرنسي وأوروبي تدريجي لكثير من البلدان العربية –الجزائر – المغرب – تونس – سوريا، كانت حملة نابليون على مصر حدثا هاما ليس في تاريخ الفرنسيين وحدهم ولكن في تاريخ المصريين والعرب عامة، إذ أصبح المؤرخون يتخذونها نقطة انطلاق لبداية لعصر جديد،كان الجيش النابليوني أكثر تنظيما وأحسن تجهيزا ورغم ذلك فشل في تحقيق جميع أهداف هذه الحملة –ورب ضارة نافعة–، فقد أدخل نابليون إلى مصر أول مطبعة في العالم العربي ، وكانت الحملة صدمة حضارية استفاق العرب بواسطتها ، لأن نابليون وهو القائد العسكري والعبقرية الفذة اصطحب منه وفدا مشكلا من 100 عالم فرنسي من مختلف الاختصاصات العلمية وعلى رأسهم عالم الرياضيات مونج Monge وحثهم على البحث والتحري في حاضر وماضي مصر "المحروسة"، فكانت باكورة إنتاجهم كتاب "وصف مصر"و هو كتاب مهم و أساسي بقيت نسخة واحدة منه في مصر، ونشأ بعد ذلك علم عظيم هو **علم المصريات** الذي تناول ماضي مصر من خلال آثارها

---

[47]– د. بومدين جلالي، المرجع السابق، ص79.

فاستخرج الكنوز المدفونة في الأهرامات والمقابر الفرعونية فثمنوها وعرفوا بها لدى العالم ، بل أن أحدهم وهو العالم "شامبليون" استطاع أن يفك ألغاز لوحة حجرية وجدها قرب مدينة الرشيد ،كانت مفتاحا وأداة علمية ومنهجية ساعدته على فتح هرم **خوفو** "الهرم الأكبر" الموجود بالجيزة، واستخرج محتوياته من مومياء و أدوات أخرى كان الفراعنة يستعملونها في حياتهم اليومية و دفنت معهم لأن قدماء المصريين كانوا يعتقدون في الحياة بعد الموت، وبعد ذلك أنشأ الفرنسيون لها متحفا عظيما بقلب القاهرة وسوقوا لها عبر القنوات المتاحة فأصبحت قبلة للسياحة العالمية وموردا هاما في ميزانية الدولة المصرية.

لم ينحصر فضل الفرنسيين على ماضي مصر فحسب بل تعداه إلى صناعة المستقبل إذ تمكن المهندس Ferdinand De Lesseps من حفر قناة السويس التي أوصلت الأوروبيين إلى آسيا وجزر الهند من أقصر الطرق عوض الدوران حول رأس الرجاء الصالح بقرن إفريقيا ، و هي الرحلة التي كانت تدوم شهورا طويلة ،فسهلت هذه القناة التجارة العالمية وحفظت أثمانها وقلصت مدة الرحلات البحرية ، وأمام كل هذه المعطيات انبهر المصريون بالفرنسيين فبعثوا بعثات طلابية إلى فرنسا لتعلم العلوم الوضعية التي كان الأوروبيون قد طوروها نتيجة ظهور العلم التجريبي على يد فرنسيس بيكون، وأولى البعثات كان على رأسها الأديب **رفاعة رفعت الطهطاوي** الذي رافقها مرشدا دينيا،وأثناء اقامته بفرنسا رصد ما شاهده فيها من تقدم و رقي وبعد رجوعه ألف كتابه "**تلخيص الإبريز في تلخيص باريس**" الذي شكل فانوسا أضاء ظلام الوطن العربي،وفي الحقيقة فقد كان هذا الكتاب منارة اهتدى بها الدارسون فأقبلوا على تعلم اللغة الفرنسية و الترجمة

منها إلى العربية، وأكثر الترجمات التي تمت كانت في السرديات والشعر والنقد، فنشطت حركة الترجمة التي تعدت اللغة الفرنسية إلى لغات أوروبية أخرى، و جاء الاستعمار الأوروبي فاقتسم الدول العربية ونشر لغته ورسخ ثقافته إلى أن أصبحت ملء السمع ملء البصر، و هكذا سادت الفرنسية في بلدان المغرب سواء كانت من باب الحاجة المعيشية، إذ أن الإدارة كانت تتعامل بها مع مواطنيها البسطاء وما تزال لغة التخاطب على سبيل التعود أو التزلف لفرنسا أو للتظاهر بالنخبوية حينا، وللتعبير عن الانتماء الأرستقراطي أحيانا أخرى .

الفصل الثالث

أدب الرحلة

1 – الرحلات وأهميتها في الأدب المقارن:

أدب الرحلة هو تلك الآثار الأدبية التي يصور فيها المؤلف عادات مجتمع ما وسلوكاته، وأخلاقه ويدون فيها انطباعاته[48] .

لعبت الرحلات دورا أساسيا في التقريب بين الشعوب ومعرفة نفسياتها وسلوكاتها وطبائعها، فقد جاب **هيرودوت** المؤرخ اليوناني الشهير الآفاق وكتب عن أحوال البلدان التي زارها ومنها مصر التي وصفها بأنها "هبة النيل"، وكذلك كان **ماركو بولو** في عصر النهضة الأوروبية إذ وصف البلدان التي زارها وصفا دقيقا، وكان لكتاباته صدى في الشرق والغرب، أما **فولتير**كان هو الآخر كثير الرحلات والأسفار، لكنه لم يزر الشرق ولم يفكر يوما في زيارته،إلا أنه اتخذ منه معادلا موضوعيا للغرب فاستلهم مثل الشرق وقيمه وكتب للناس قصصا فلسفية أبطالها شرقيون وبيئاتها شرقية أيضا، وحمل أبطالها أسماء وقيما شرقية،كل ذلك لكي يبث برنامجه الإصلاحي الرامي إلى استنهاض مجتمعه المتخلف وقتها.

أما عند العرب فقد اشتهر في هذا المجال الرحالة **ابن بطوطة** (770هـ) الذي جاب الآفاق وألف كتابه "الرحلة" المشهور والمترجم إلى أكثر من لغة، ومثله في ذلك **البكري وابن خلدون** رائد علم الاجتماع صاحب كتاب "تاريخ العرب و البربر"،الذي ترجمه الفرنسيون وأعادوه لنا فاحتفينا به، وتقول بعض الدراسات أن فرنسا ومنذ أن فكرت في غزو شمال إفريقيا

[48]– أنظر: مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات، ص17.

-وهو مشروع قديم سابق-كانت تبحث عن وسيط يشرح لها قبائل ومجتمعات المغرب العربي إلى أن اكتشفت ابن خلدون فترجمته وطبقت كثيرا من استنتاجاته وتحاليله في حكمها للجزائر ولبلدان المغرب العربي الأخرى .

ساهمت الرحلات في نشر الثقافة بين الشعوب وفي نشر الأساطير بينها، إذ تعكس الأساطير أنماط التفكير عند الإنسان القديم في مختلف الحضارات فهي توضح كيفية تصرف الإنسان البدائي إزاء الظواهر الكونية المختلفة التي كانت تحيط به وتلحق به الأذى، والتي نسج حولها الأساطير ليس للقضاء عليها أو الحد من آثارها وإنما لكي يحمي نفسه من عوامل الخوف الداخلية التي كانت تعتريه، فأله مظاهر الطبيعة واتخذ لكل ظاهرة إله عبده وقدم له القرابين تقربا وزلفى[49] ،وكثيرا ما رتب تلك الآلة في تراتبية معينة حسب قوتها المفترضة، فاليونانيون رتبوا آلهتهم وجعلوا على رأسها كبير الآلهة "زوس" الذي كان يجلس على جبل الأولمب وكانت تقام له الاحتفالات السنوية ،ولازال هذا التقليد سائدا إلى يومنا هذا لكن في صورة مهذبة هي الألعاب الأولمبية التي تقام دوريا، وقد عكس أدبهم هذا الاعتقاد الراسخ الذي كان صلب عقيدتهم، وتجلى ذلك خاصة في أهم عملين أدبيين خالدين هما "الإلياذة" و"الأوديسا" للشاعر "هوميروس"* الذي اعتبر" أكبر شاعر عرفته الإنسانية منذ فجر التاريخ إلى اليوم"[50].

---

[49]– أنظر توماس بلفينش:عصر الأساطير، ت. رشدي السلسي، مراجعة محمد صقر، خفاجة، دار النهضة العربية، 1966، ص11 وما بعدها.

*هوميروس : لم يعرف له تاريخ ميلاد و لا وفاة و قد استنتج النقاد من أشعاره أنه عاش ما بين850 و 750 ق.م ، و هذه المعضلة عرفت بالمشكلة الهوميرية .

[50]- أنظر : د. أحمد عثمان : الشعر الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا، سلسلة عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مطابع الرسالة، 1984 م .

2 – دور أدب الرحلة في تكوين الصورة :

الرحلات أنواع :

- أن تسافر
- أن تقرأ الكتب
- و أن تقرأ كتب الرحلات

– أن تسافر :

فالذي يسافر إلى الأماكن البعيدة يريد أن يعرف وأن يفهم ويريد أن يرى الجانب الأخر من الجبل أو النهر أو البحر، ويريد أن يرى الجانب الخفي من جبل الجليد La partie cachée de l'iceberg، وهناك فرق بين أن تسافر لترى البلاد، وبين أن تسافر لتعرف الناس، والذي يسافر كثيرا يعرف الكثيرين، و لكنه يصادق القليل، فالذي يسافر إلى بلاد أخرى ويعود يحدث أهل ه وأصدقاءه أو قراءه عما رأى فهو فيلسوف، أما الذي يسافر ويعود ولا يحدث الناس بما رأى ولا يدون ما رآه عند الشعوب التي زارها فهو سائر في بلاد الله بلا مخ ولا إحساس، فعندما اشتكى أحد تلامذة سقراط من أن السفر لم يفده و لم يغير فيه شيئا أجابه سقراط: "من الطبيعي ألا يفيدك السفر شيئا، لأنك سافرت مع نفسك" .

حب الاستطلاع وحب المعرفة يبعث الإنسان إلى السفر بعيدا عن بيئته ووطنه، حب المغامرة يبعثه إلى ركوب الصعاب وتحدي المجهول الذي يتحدى الإنسان، ويتحداه الإنسان في نفس الوقت، فالرحلة مند القدم هي مزيج من الرغبة والرهبة ومن الشجاعة والخوف، لذا سعى الإنسان إلى معرفة المجهول مهما كان الثمن، وكثيرا ما دفع روحه من أجل أن يعرف، ودفع المسافرون أنفسهم من أجل أن يعرفوا و ماتوا و هم يعرفون أكثر، و لا بد أن تعاستهم الوحيدة هي أن الموت حرمهم من أن يقولوا ما الذي رأوه، وبعضهم مات وهو لا يدري أنه حقق انجازا عظيما لفائدة البشرية وهو حال كريستوف كولمبس الذي مات وهو لا يدري أنه اكتشف قارة جديدة، فقد دفعه حب المعرفة إلى ركوب البحر للوصول إلى جزر الهند الشرقية عبر مسلك بحري لم يألفه أحد، لم يسر فيه بحار قبله لذا اكتشف العالم الجديد، وعاد إلى بلده فسجن ومات دون أن يعرف أنه حقق انجازا عظيما.وقبله ركب **أوديسيوس** المخاطر الكثيرة وعاد إلى وطنه وفي رحلة العودة تصارعت الآلهة وتحالفت مع قوى الشر ضده لتعطيل هذه العودة، لكن حبه لركوب المخاطر وشوقه إلى أهله ووطنه جعله يصارع قوى خارقة للعادة أهمها "بوسيدون" إله البحر و"السيكلوب"؛ و هي تلك المخلوقات العجيبة ذات العين الواحدة، الذي سجنهم وكان يتغذى على كل اثنين من رفاقه في كل وجبة، لكن حب المغامرة و التمسك بالبقاء وبالحياة جعله يتحدى الصعاب جميعا، كل هذا لكي يعود إلى وطنه ويحكي

هذه المغامرات والأهوال التي نظمها شعرا الشاعر الكبير هوميروس، فقد صارع أوديسيوس وتعذب وانتصر وسجل في ذاكرته ما رأى ليعود ويقول للناس شيئا جديدا وممتعا.

سافر المؤرخ اليوناني هيرودت [51] فزار كثيرا من بلاد الدنيا و رأى فيها العجائب، وجاء هاربا إلى مصر من بوليس بلده لأنه اتهم بتدبير مؤامرة أو الاشتراك فيها، وحاول أن يجعل لرحلته إلى مصر معنى نفسيا أو فلسفيا فعمل على أن يستفيد من منفاه فكتب عنها .

وجاء الإسكندر الأكبر إلى واحة سيوة وطلبت منه إحدى الآلهات أن ينفرد بها، فهمست في أذنه بسر الكون لهذا فتح المعمورة شرقا وغربا ومات وهو مازال في ريعان الشباب.

أما الرحالة الايطالي ماركو بولو [52] فقد أهانته فتاة يحبها فأقسم ألا يعود إلا بلاده إلا وهو بطل تتعلق بحذائه الفتيات الجميلات ويرفضهن جميعا، وعاد و لم يجدهن و لم يحزن على ذلك فالذي رآه كان أروع وأصدق.

[51]-Dictionnaire de la langue française: « encyclopédie et noms propres » ed. alpha Italie. 1994, p. 618

[52]- أنظر نفسه، ص 1004 .

كل هؤلاء و أولئك من الرحالة المغامرين يتحدثون عن عذابهم بلذة و لو خيرناهم أثناء رحلاتهم الطويلة أن يعودوا لرفضوا، فهم يريدون أن يستمروا... أن يمضوا حتى نهاية الرحلة أو نهاية الحياة.

– أن تقرأ الكتب :

الإنسان لا يسافر لمجرد السفر فلابد أن يكون هناك سبب، فالغرض من السفر هو أن يخفف الإنسان من عذابه وأن يلقي بهمومه على الشواطئ الجديدة وعلى الوجوه الجديدة، فالقارئ لنص "ألف ليلة و ليلة؛ النص عد من أهم عيون الأدب الشعبي شرقا و غربا و عكس للدارس والمهتم عظمة العقل الذي أنتجه، يروي لنا المؤلف المجهول حوادث ونوادر وعادات غريبة في بلاد غريبة، فليس صحيحا أن هذا النص كان نتاج فعل خيانة زوجة الملك شهريار أو زوجة أخيه الملك شاه زمان.

فألف ليلة وليلة تبدأ أحداثها باشتياق الملك شهريار لأخيه الأصغر شاه زمان، فطلب لقاءه فأعد شاه زمان عدته وراحلته وامتطى جواده لكنه سرعان ما رجع إلى البيت لأنه نسي شيئا أو تذكر أمرا ما وعاد إلى قصره فوجد زوجته بين ذراعي خادم زنجي، فقتل الاثنين وسافر حزينا صوب أخيه شهريار الذي رآه على هذه الحالة النفسية فدعاه إلى الصيد للتخفيف عنه لكنه اعتذر فسافر شهريار وحيدا رفقة خدمه، وصادف أن نظر الأخ الأصغر من النافذة فوجد زوجة أخيه شهريار تعانق

عشرة زنوج وتمارس معهم المحظور وكانت صدمة أخرى وأحس بأن مصيبته أهون من مصيبة أخيه، وروى لشهريار ما رأى فلم يصدقه حتى رأى ذلك بعينيه، شعر بالإحباط واليأس والذل والهوان، فقررا أن يرحلا إلى بلاد أخرى ليريا إن كان هذا ما تفعله النساء مع كل الرجال في كل أنحاء الدنيا، سافرا بعيدا فصادفا فتاة جميلة ينام على ساقها عفريت فخافا، لكن الفتاة طلبت منهما أن يهبطا ويعانقاها الواحد تلوى الأخر وإلا أيقظت العفريت ففعلا وأرتهما عقدا به عشرات بل مئات الأختام قد أخذتهما جميعا من أناس عانقوها الواحد بعد الأخر بينما كان العفريت نائما على ساقها، فاقتنع شهريار وأخوه بأنه إذا كان هو حال المرأة مع عفريت فما الذي تفعله المرأة مع أي إنسان؟

وعاد شهريار إلى قصره فقتل الزوجة و الخدم و راح في كل ليلة يتزوج فتاة ويقتلها.. حتى جاءت شهرزاد تروي أكثر من مائتي قصة في عدد من الليالي ليست محددة بعدد، فتروي له عجائب وغرائب الدنيا لكي ينساها وينسى محنته وكربته فانجذب شهريار إلى طريقة القص التي اشترت بها عمرها، فنجت من القتل وأبعدت الملك شهريار عن سفك الدماء وغيرت نظرته إلى المرأة وأعطته صورة أخرى عن المرأة وأخواتها بأنهن لسن دائما خائنات لأزواجهن بل فيهن العظيمات اللائ ي يملأن الدنيا حبا وخيرا وودا، فكان نص الليالي نصا ثريا مليئا بالمغامرات في البر والبحر، فيه شعر وخيال وحقائق تاريخية وجغرافية وموعظة أخلاقية، فليس المهم أن يسافر

الإنسان إلى أرض غريبة، وإنما أن يعود إلى بلده ليسرد للناس ما رأى لعل أحدا ينتفع بما قرأ. فقراءة الكتب هي رحلات أخرى في عقول الآخرين ووسيلة إلى الرحلات في أعماقنا.

وكان القديس أوغسطين [53] يدعو تلامذته إلى تأمل النفس البشرية ففيها أعماق وألغاز، أصعب مما في هذا الكون كله ولابد أن يستعين الإنسان بغيره لكي يفهم نفسه، يستعين بالكتب.

– قراءة كتب الرحلات :

أما كتب الرحلات فهي أعماق الآخرين، لذلك كانت أروع الرحلات هي التي نقوم بها في رحلات الآخرين، نرى بعيونهم ونسمع بأذانهم و في ذلك متعة للخيال و تشويق للإرادة، فكل كاتب رحلة يروي ما شاهده على طريقته وبأسلوبه ولكن من الضروري أن يكون صادقا وأن يضع الصدق تاجا على رأس الفن فقد كتب أوليفر سويفت [54] الكاتب الساحر قائلا: "لو كان الأمر بيدي لأصدرت قانونا يحتم على كل رحالة أن يقسم بالله العظيم أن يقول الحق ولا شيء إلا الحق قبل أن ينشر ما رأى وما سمع" ومن الغريب أن هذه الصرخة جاءت في نهاية رحلات افتراضية من خيال الأديب الساحر، الذي من المؤكد أنه كان يسخر من العلماء

---

[53]- المرجع السابق، ص 92.

[54]- Dictionnaire de la langue française, p. 1232.

الجامدين الذين لا يصدقون شاعرية المسافر العاشق الذي بهرته الأشياء والأشخاص والمواقف.

فنحن في عصر الرحلات والمغامرات العلمية بين الأرض والكواكب الأخرى وإذا كنا لا نعرف الكثير من هذه الكواكب، فلأن هذه الرحلات من الأسرار العلمية، فالدول العظمى تتسابق لاحتلال الفضاء بعد أن كانت تتسابق لاحتلال البلدان في القرن 18 و 19م بعد الثورة الصناعية، هذه الأراضي التي قيل عنها أنها خالية من السكان تارة ومحتاجة إلى من يحضرها تارة [55] لأن سكانها كانوا لتوهم قد نزلوا من الأشجار، وهو تسويغ للاحتلال العسكري الذي أتاح لها نهب خيرات الشعوب و استنزافها على مدى قرن أو يزيد و لازال هذا الاستنزاف مستمرا بأشكال مستترة راقية.

فالدول العظمى تسعى بل تتسابق للسيطرة على القضاء وقد كان التسابق برنامجا يحظى بالأولوية وتخصص له ميزانيات ضخمة، لذلك فإن هذه الدول لا تسمح إلا بالقليل من المعلومات، وحتى إذا سمحت بذلك فإن رواد الفضاء ليسوا من الأدباء أو الشعراء لذلك لا يعرفون كيف يصفون.

---

[55]- هذا الرأي تبناه الكاتب الفرنسي لويس برتراند ،الوارد في Belamri Rabah,l’œuvre de Louis Bertrand, mémoire de l’idiologie colonialiste 1er ed, OPE ,Alger,1980,p :115

سنورد في هذا المضمار رحلتين اثنتين هامتين احتفظت بهما كتب الأدب والتاريخ عند العرب، أما أولاها فإنها رحلة ابن بطوطة وأما الثانية فإنها رحلة رفاعة رفعت الطهطاوي إلى باريس المدينة الجميلة، مدينة الجن و الملائكة كما وصفها عميد الأدب العربي طه حسين، المدينة التي تختزل فرنسا و إلى عهد قريب كانت تختزل الغرب.

3- أدب الرحلة عند العرب :

3-1- رحلة ابن بطوطة:

هو أبو عبد الله بن إبراهيم اللواتي نسبة إلى قبيلة لواته إحدى قبائل البربر، المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين من مواليد سنة 1304 والمتوفى سنة 1377 وقد كان في الثانية والعشرين عندما شرع في أطول رحلة قام بها الإنسان في العصور القديمة مشيا على الأقدام طولها 75 ألف ميل وقد استغرقت تسعة ألاف يوم أي ربع قرن من الزمان وقد هاجمه الهنود ومزقوا مذكراته كلها، وعاد ليروي ما حدث له في عشرين عاما من الذاكرة لذا خلد نفسه وخلده التاريخ .

ولد بمدينة طنجة المغربية الساحلية وعاش بها يافعا متدينا شديد الرغبة في المعرفة وحب السفر، أي في حب المعرفة عن طريق السفر، قرأ رحلة ابن جبير ولكنه كان يختلف معه إذ كان هذا الأخير مهتما بالمدن والمساجد والذي

تعب كثيرا من رحلاته، لكنه في النهاية كان سعيدا بما رأى شاكرا ربه على

ذلك بقوله:

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عينا بالإياب المسافر

بينما اهتم ابن بطوطة بأحوال الشعوب وطرق معاشهم وأخلاقهم وعاداتهم

وملابسهم وطبائعهم.

بدأ رحلته متجها إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، لأن الحج مؤتمر عظيم يلتقي فيه المسلمون باختلاف أوطانهم وأجناسهم وألسنتهم وألوانهم. فرحلة ابن بطوطة ممتعة جدا فكلها حكايات ونوادر وخرافات سمعها وصدقها و لم يسعفه الوقت لكي يتأكد منها ولكنه نقلها كما هي، فقد كتب في عادات الناس وتقاليدهم وسافر إليهم في بلدانهم وأماكن تواجدهم و لم يدفع في رحلته مليما واحدا من جيبه، لأنه كان بلطفه وبراعته يحصل على الفلوس من السلاطين. كان بن بطوطة يعمل قاضيا للمسلمين في جل البلاد التي ذهب إليها لذلك كان يتزوج في كل البلاد التي يحل بها ثم يطلق زوجته عند المغادرة لذلك تزوج كثيرا، إذ بلغت زيجاته 23 زيجة أنجب خلالها 70 ولدا وبنتا.

لم يتعرض ابن بطوطة بالوصف الدقيق إلى النساء اللواتي عاشرهن و لا شك أن الحياء هو الذي منعه من ذلك ورغم ذلك فقد أشار إلى هذه المسألة في أكثر من موضع، إذ وصف بنات الفرس بأنهن جميلات وأنهن أقدر نساء العالم على التفنن في حركات العشق، وقد حاول ابن بطوطة أن يصلح فهم الشريعة الإسلامية واستيعابها وتمثيلها في كل البلاد التي ذهب إليها، فقد انزعج مرة عندما سمع صوت أجراس الكنائس أعلى من صوت المآذن، وعلم مرة وهو في جزر المالديف أن النساء يمشين عاريات الصدر فمنعهن، وكان من عادة المسلمين في الهند إذا طلق الرجل زوجته أن تبقى في بيته حتى يجد لها زوجا آخر، فحرم ذلك وأطلق سراح المطلقات وعزّر المخالفين لأحكام الشريعة وفضحهم في الشارع، وكان يحكم بقطع يد السارق، وفي الهند رأى عجائب كثيرة، لا زالت تنقل إلى يومنا هذا دون أن يناقشها أحد رغم أنها لا تقوم على أي أساس منطقي فهو أول من وصف الرجل الذي يرتفع تلقائيا فوق الأرض ثم يرتفع حذاء إلى أعلى رأسه ويضربه فيسقط أرضا، ويذكر ابن بطوطة إنه رأى في جزر المالديف نساء لهن ثدي واحد، ولو قال أحد هذا الكلام في أيامنا هذه لكان مقبولا، ذلك أن العلم تقدم كثيرا وأصبح يقوم باستئصال ثدي المصابة بأورام سرطاني ة، وقد تأثر بحياة جزر المالديف التي تزوج بها أربع سيدات جمع بينهن فكان أهلها قمة في الأدب والأخلاق وحسن المعاملة والاحترام، إن العروس فيها تفرش الطريق إلى بيت العريس بالقماش ثم تنتظره عند الباب فإذا جاء ألقت بثوبها

على قدميه وكذلك يفعل السكان جميعا مع الذين يحترمونهم من الناس. أما كيف
دخل الإسلام تلك الربوع فيعود الفضل فيه إلى شيخ اسمه **أبو البركات البربري**
الذي جاءهم من المغرب، إذ كانت المالديف تعيش طقسا أسطوريا شبيه بعروس
النيل عند الفراعنة القدامى، فقد كان السكان يتوقعون مجيء عفريت جبار مرة كل
شهر يعدون له فتاة جميلة عذراء تبيت معه في إحدى القلاع، إلى أن جاء أبو
البركات البربري، وذات صباح وجد عجوزا تبكي وسألها عن السبب فقالت: ابنتي
الوحيدة عليها الدور هذه الليلة، فقال أبو البركات لا تحزني سأذهب بدلا منها،
وذهب الشيخ إلى القلعة و في الصباح جاء أهل الجزيرة يتسلمون الفتاة لقتلها
وحرقها كالعادة فوجدوا الشيخ يصلي، و لم يمسه أذى، وهكذا انتهت تلك
الأسطورة، وامتنع السكان عن تقديم العذراء إلى العفريت بفضل الشيخ أبو
البركات، وزال هذا الاعتقاد السيئ الذي لا يستند إلى العقل، وقد بنى الناس ضريحا
للشيخ البربري لا زال مزارا دينيا يتردد عليه كل من سدت في وجوههم الأفاق
ملتمسين البركة من رفات أصبحت ذرات ورماد.

وتعجب ابن بطوطة كثيرا عندما زار مدينة البصرة وهي موطن وميلاد
سيبويه أب النحو فوجد في أحد مساجدها إماما يخطئ في النحو والصرف.

وعندما عاد إلى وطنه كان يجلس إلى الناس ويحكي لهم ما رأى وما سمع
وخاف السلطان من أن تضيع تلك الحكايات والنوادر فاحضر كاتبا اسمه ابن جزي

الكلبي وطلب من أن يدونها ونشرت بعنوان "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وأجمل صفحات الرحلة هو ما كتبه ابن بطوطة عن نفسه، عن عذابه عندما وقع في الأسر وكيف أنه تحول إلى إنسان رقيق مملوك، فوصف عذابه وهوانه على الناس، كيف سجنوه ليقتلوه، ثم ربطوه بالحبال وكيف أن الرجل المكلف بقتله كانت عينه على ملابس ابن بطوطة فأعطاها له وارتدى ملابس الممزقة، ثم هرب إلى الحقول والغابات ونام في البيوت المهجورة والأكواخ وسط الثعابين والحيوانات [56].

3-2- رحلة رفاعة رافع الطهطاوي :

في سنة 1826م علم محمد علي باشا بوصول باخرة حربية فرنسية إلى ميناء الإسكندرية فخطر له أن يبعث على مثنها عددا من الطلبة المتفوقين إلى فرنسا لطلب العلم الوضعي الحديث، الذي جعل الأمم الغربية تزدهر وتتفوق وتغزو غيرها من البلدان العربية والإسلامية ولا شك أنه عاش حملة نابليون على مصر وشاهد ذلك الجيش المجهز والمدرب الذي يرافقه العلماء لتوثيق كل خطواته "وإنجازاته" ولحل كثير من الصعاب والألغاز التي قد تواجهه وهو يتقدم لغزو أمة أنجزت حضارة راقية بين مثيلاتها من الأمم، وكان رفاعة الطهطاوي في الخامسة والعشرين شاءت الصدفة أن تجعل هذا الأزهري الصعيدي إماما لأربعين طالبا أرسلهم محمد علي إلى باريس

[56]- ينظر : رحلة ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط1، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب العلمي، 1991.

لإمامتهم وتذكيرهم بمبادئ دينهم وحضارتهم، بغية تحصينهم ضد الميوعة والانحلال في المجتمع الغربي.

وهو على ظهر السفينة لم يتوقف عن التفكير والتأمل والمقارنة فلاحظ أن الفرنسيين في غاية النظافة، فاندهش لأنه كان قد تعلم أن النظافة من الإيمان وهؤلاء ليسوا مؤمنين، فاستنتج أن العالم الإسلامي فيه طهارة ووضوء وعندهم نظافة وتعقيم. كتب الطهطاوي رحلته إلى فرنسا التي استغرقت خمس سنوات في كتاب عنونه بــ "تخليص الأبريز في تلخيص باريز" على عادة المؤلفين القدامى الذين كانوا يختارون عناوين مثيرة لمؤلفاتهم تعوضهم عن الإشهار القائم على أيامنا، وفي الكتاب صفحات مسجوعة على طريقة الكتاب في ذلك العصر وما قبله أيضا فالكتاب مليء بالملاحظات الدقيقة عن المرأة والرجل وعن جمال المرأة وملابسها وعاداتها وحريتها في أن تصادق من تشاء أو تضاجع من تشاء إذا لم تكن مرتبطة بالزواج، دغدغت عواطفه بجمالها ورقتها فأنشد يوما يقول:

أصبو إلى كل ذي جمـــــال ولست من صوتي أخاف

و ليس لي من الهوى ارتياب وإنما شيمتــــــي العفاف [57]

قطعت السفينة الرحلة في 23 يوما، و في ميناء مرسيليا كان لا بد من الحجر الصحي ودارت مناقشة بينه وبين الوفد حول إشكالية "هل الحجر الصحي حرام أم حلال ؟ فقال بعضهم :حرام لأن معناه أن يتدخل الإنسان في إرادة الله

[57]- أنظر : رفاعة رافع الطهطاوي : تخليص الإبريز في تلخيص باريز، طبعة بولاق، 1936

ورأى الشيخ الطهطاوي أنه ليس حراما، بمعنى أن الطهطاوي كان أكثر ذكاء وهو الشيخ الأزهري من طلاب يرمون إلى الاستزادة من العلوم الأوروبية، فقد كانوا قدريين وكان عقلانيا ولو بعفوية وتلقائية وبالمنطق الريفي الصعيدي La logique paysanne، وفي مرسيليا تعرض الطهطاوي إلى صدمة الحضارة دفعة واحدة ومن حسن حظه أنه كان قد زار الإسكندرية قبل رحيله إلى فرنسا، والتي كان فيها أوروبيون من أجناس مختلفة ولغات وقوميات متعددة، لهذا استطاع أن يقارن وأن يتأمل بين واقع مصر التعيس وواقع أوروبا بنهضتها الصناعية والعلمية والاجتماعية وتأكد من أن الثورة الفرنسية العظيمة بقيادة البورجوازية قد حققت إنجازا عظيما، وهو **فصل ما هو ديني عما هو سياسي،** وأقرت دستورا يحقق ذات الفرد ويضمن حقوقه ويحدد واجباته خلاف مصر والبلدان العربية التي كانت تحكمها أنظمة متخلفة تكرس الأنانية والحب المفرط للذات، هذا إن لم تكن أداة ووسيلة طيعة في يد الاستعمار الغربي .

ففي مرسيليا لاحظ أن البيوت لها جدران مغطاة بالورق وليست مطلية بالجير الأبيض و رأى الناس لا يأكلون على الأرض بل يجلسون حول طاولة على كراسي تتيح لكل فرد أن يأكل بارتياح عوض الجلوس في انحناءة لا تسهل أكلا ولا هضما. ورأى أن الأوروبي يأكل بالملعقة والشوكة والسكينة وقبل أن يجلس إلى الأكل يذهب إلى الحمام لغسل يديه بالماء المعقم المطهر والصابون بينما ينهي المصري

الأكل ويمسح يديه في ثيابه ولا زالت هذه العادة مستمرة في أرياف مصر وقد عكست السينم ا المصرية هذه الصورة بوضوح، وأعجب الطهطاوي من أن الأوروبيون ينامون على سرير مرتفع ولا ينامون على الأرض ولاحظ أيضا أن النساء يبعن في الدكاكين أما الرجال فلهم أعمال أهم وأعنف ورأى أن المقاهي ليست للحرافيش والدهماء والرعاع، وفي يوم دخل المقهى أحس كأنه في ميدان واسع جدا واكتشف أن هذا الذي يراه هو خداع بصري فقط، لأن جدران المقهى وضعت عليه مرايا تعكس صور الناس كما هي وتعطي انطباعا بأن المكان قد تضاعفت مساحته وهو شيء لم يكن قد رآه من قبل، أما الميادين في باريس فهي كثيرة بها أشجار وزهور وهي تشبه ميادين القاهرة في الاتساع لا في القذارة. وقد اندهش الطهطاوي عندما وجد بفرنسا نخيلا وقد قرأ في كتاب القزويني المعروف باسم "عجائب المخلوقات و غرائب الموجودات" أن النخلة شجرة مباركة وأنها لا تنبت إلا في بلاد الإسلام، فكأني به يصطدم كل يوم بحقيقة تقلب تفكيره رأسا على عقب وتجعله يعيد النظر في بعض المسلمات التي تلقاها وهو صبي ورسخت في مخيلته نتيجة مناهج التعليم التلقينية في الأزهر الشريف، فبدأ **الشك المنهجي** يدب إلى عقله، فلا يكاد يمر يوم واحد حتى يصحح معلومة أو مسلمة كانت عنده لا تقبل النقاش وتحكمها مقولات مطلقة تعطي صورة كاريكاتورية للوجود، فبدأ يلفت انتباه الناس جميعا إلى ضرورة تغيير أفكارهم وإعادة النظر في المسلمات والأحكام المطلقة التي تكبل العقول

وتحيلها إلى جماد والتفكير بالمنطق النسبي ، رأى الناس في باريس يقرؤون الصحف والمجلات والكتب، كل الناس بمختلف مستوياتهم وطبقاتهم الاجتماعية، يناقشون في كثير من القضايا الفكرية والفلسفية، مجاملون بالأقوال لا بالأفعال، وهم بخلاء في نظره ذلك أن الشيخ الطهطاوي كان يفكر بخلفية حاتم الطائي لكنه تناسى أن المجتمع الباريسي مجتمع يرتكز على العقلانية التي تفرض على كل فرد التصرف حسب إمكانياته المادية ثم أن هناك معايير وقيم أخرى يؤمن بها، فقد يجلس معك الأوروبي إلى طاولة واحدة لتناول الغداء لكنه يدفع الحساب الخاص به من جيبه لأنه لم يتلق دعوة منك، و تأكد أن الناس في فرنسا يعملون ليل نهار ويقدسون العمل، بل أنهم يحققون ذواتهم فيه وهم يؤمنون بالمثل القائل الليل والنهار يعملان فيك فأعمل فيهما، اكتشف أن الفرنسيين أقل غيرة على نسائهم من العرب فالرجل عندهم يسمح لزوجته أن ترقص مع رجل آخر بل قد تذهب أو تسافر معه لكنه لا يغضب، ويذكر أن ملوك فرنسا وانجلترا لهم زوجات فاسدات وعلى الرغم من يقينهم بذلك فان القضاء لم يحكم ضدهم لعدم توافر الأدلة لأن القضاء عندهم سلطة مستقلة لا تخضع لسلطات الملك، و القضاء لا يحكم بالشبهات بل بالأدلة المادية الدامغة لأن الشك يفسر عندهم لصالح المتهم، ولأن قرينة البراءة هي الأصل ولعله تذكر هناك القاعدة الشرعية في الدين الإسلامي التي مفادها "أن الأصل في الأشياء

الإباحة"، والمشرع عندهم عندما يصنف أي تصرف يقوم به الفرد بأنه ضار يمنع ذلك بالقانون عملا بالقاعدة" لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص".

فقد رأى الشيخ الطهطاوي أن المرأة الفرنسية لا تنقصها الثقافة وإنما تنقصها الأخلاق ولعله رأى في جرأة المرأة واقتحامها لجميع مناحي الحياة ميوعة أو اعتقد ذلك، لكنه كان لا يرفع عينيه عن المرأة الفرنسية و لا يشبع من النظر إلى وجهها وملابسها وهي قد عرت صدرها وسترت ساقيها لكنه تدارك ذلك في أخر كتابه إذ كتب عن المرأة الفرنسية قائلا :

"إن وقوع الاختلاط La Mixité لا يؤثر على عفة النساء ولا يأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك في المحبة والالتئام بين الزوجين، وقد جرب في بلاد فرنسا أن العفة تستولي على قلوب النساء المنسوبات إلى الطبقة الوسطى من المجتمع، دون نساء الأعيان و الرعاع".[58] وانبهر الشيخ الطهطاوي بالمسارح وما تعرضه على خشبتها من أعمال فنية القصد من ورائها تثقيف المجتمع وتهذيب الأخلاق، وتحدث عن اللغة الفرنسية ومبادئ النحو والصرف والبلاغة والهندسة. أعجبته الحمامات الشعبية في فرنسا فكل مستحم يخلو لنفسه في "كابينه"، ولا يسمح له أن يرى عورة أخيه بخلاف الحمامات العمومية في مصر التي هي في الأصل حمامات تركية .

---

[58] - ينظر الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز،المرجع السابق ، وكذلك عند الصغير بن عمار، دار هوفم للنشر الجزائر سنة 1991 ص 165-166.

وقد أشرف على هذه البعثة المستشرق الفرنسي "جومار" وهو أحد علماء الحملة الفرنسية، والمسؤول الأول عن إصدار ذلك الكتاب الموسوعي "وصف مصر" ففيه مسح اجتماعي وإنساني وجغرافي وتاريخي لكل مصر من جميع النواحي. الإنسان والحيوان والنبات والجبال والوديان.

"رأى الطهطاوي أن المنطق العلمي الذي تبنى عليه حياة الفرنسيين هو أساس نجاحهم في فروع الحياة المختلفة" [59].

لقد كان أحد الرواد الداعين إلى تقليد الأوروبيين في علمهم ونهضتهم ومدنهم واجتماعهم، دون أن نغفل بأنه كان أول مترجم مصري أو بالأحرى رائد المترجمين ومديرا لمدرسة الألسن [*]، وقد ترجم موضوعات علمية كثيرة تنتصر لفرنسا ودعا إليها وكانت عينه على فرنسا وقلبه على مصر، رأى أن سهولة اللغة الفرنسية أعان الفرنسيين على التقدم في العلوم والفنون لأن قواعدها مبسطة ومحددة وواضحة، ورأى أن العقل مقدمة ضرورية للعلم وأهميته الحضارية، لذلك انطلق رفاعة في تأكيده على العلم في مشروعه التنويري وهذا ما جعله يقتنع بأهمية العلم في بناء الحضارة، وهو ما جعله يؤكد أيضا على واجب الدولة في رعاية العلم وتقدير العلماء لأن الحضارة لا تزدهر إلا بالعلماء لدى صرح بقوله "اعلم أن كل

---

[59]- د. سالم المعوش : صورة الغرب في الرواية العربية، ط1 ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، بيروت لبنان ، 1998 ، ص 186 .
[*]مدرسة الألسن التي أسسها محمد عثمان جلال الشاعر المترجم المشهور صاحب كتاب"العيون اليواقظ في الأمثال و المواعظ" المترجم لخرافات لافونتان Les fables de jean De la fontaine.

العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والإحاطة بجميعها أمر محال" [60]، نلاحظ أن الطهطاوي في زمنه لم يفضل العلوم الدقيقة على العلوم الإنسانية كما هو حالنا اليوم في الدول المتخلفة كالجزائر مثلا، التي تعاني فيها العلوم الإنسانية والاجتماعية من التهميش والإذلال المقصود لحاجة في نفس يعقوب، فقد انبرى أحد رؤساء حكومات الجزائر يخطب في الناس قائلا: بأن الجزائر في حاجة إلى العلوم التقنية وليس إلى الشعر، وذكر آية من القرآن الكريم فهل لمن لا يفرق بين الشعر والقرآن أن يطلب استبعاد العلوم الإنسانية من المناهج الدراسية؟.

درس رفاعة الطهطاوي "الظواهر الحضارية في أكثر من مجتمع عن طريق النقد القائم على الموازنات، وذلك بقصد إبراز العناصر الحضارية المشتركة، فقد تأثر بالروح العلمية التي تؤمن بنظرية النسبية ولذلك عالج الظواهر الأدبية واللغوية والحضارية التي يمكن أن تدخل في نطاق الأدب المقارن بمعنى من معانيه، لكنه من الواضح أن هذه المرحلة لم تعرف الأدب المقارن بمعناه الحديث كعلم له حدوده ومفهومه ومقوماته" [61] .

بعد سقوط غرناطة واكتشاف أمريكا "العالم الجديد" واكتشاف المسالك البحرية المهمة خاصة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بقيادة برتولوميودياز، انطلق الأوروبيو ن في البحث عن مناطق جديدة وهي ما سميت بالاكتشافات

[60]- د.سالم المعوش ، المرجع السابق ، ص 186 .

[61]- د.عطية نصر عامر : محاضرة في كتاب "أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب " ،ملتقى منعقد بجامعة عنابة ، من 14 إلى 19 ماي ،1983 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1985 ،ص 18-19 .

الجغرافية والمقصود بها تلك الرحلات البحرية التي قام بها الأوروبيون ابتداء من نهاية القرن 15م وبداية القرن الموالي له، وتجدر الإشارة هنا إلى توضيح هذا المفهوم الذي قصد به الأوروبيون اكتشافهم لمناطق من العالم كانت مجهولة ولكن الأصح أنها كانت مجهولة لديهم، فهم اكتشفوا غيرهم من الشعوب، لأن كريستوف كولومبس عندما اكتشف أمريكا وجدها آهلة بالسكان الأصليين -الهنود الحمر- و لم يجدها أرضا خالية من السكان وتتالت الهجرات الأوروبية الاستيطانية التي مارست ضروبا من سياسات الإفناء للسكان الأصليين، وقد عكست السينما الأمريكية في القرن 20م بعض جوانب وأشكال سياسة الإفناء هذه، وأهم فلم صور هذه القضية تصويرا موضوعيا هو فلم بعنوان A little big man ل Arthur Pen .

لقد تم بفضل هذه الرحلات ميلاد البدع والأساطير الخصبة التي دغدغت خيال الأوروبي لهذا قال فريديريك شليغل Frederic Schlegel "إن الرومانسية الأسمى توجد في الشرق حيث يجب أن نبحث عنها" وهكذا أصبح الشرق بدعة الغرب كما عبر عنه الباحث ادوارد سعيد Edward SAID "الشرق بدعة الغرب" [62] حيث كان ملاذا للتيار الرومانسي الذي نشأ في مثلث جغرافي أوروبي رؤوسه الثلاثة هي ألمانيا، إنجلترا، وفرنسا.

[62] Edward Said : « l'orient crée par l'occident l'orientalisme », Ed. du Seuil ,paris, 1978.
ينظر د .ادوارد سعيد ، الاستشراق ، ت.كمال أبو ديب، ط2 ، مؤسسة الأبحاث العربية، 1984.

4–أدب الرحلة عند الأوروبيين:

شكلت الفترة من القرن 15 إلى القرن 20م العصر الذهبي لأدب الرحلة إذ رحل فيها عدد كبير من الأدباء الرحالة Les Ecrivains voyageurs أمثال رابليه Rabelais ومونتاني Montagne وماينار Maynard ونيرفال Nerval وأندريه جيد André Gide غيرهم من المتشبعين بالرومانسية الذين عادوا إلى روما التي شكلت وقتها أرض ميعاد الإنسانويين Les Humanistes.

بحلول القرن 17م ازدهرت بباريس مجالس المثقفين، وكان الحديث فيها يدور عن الشرق وسحره بتأثير الصورة التي أضفتها الليالي على الصالونات الباريسية.

منذ دخول فرنسا إلى الجزائر سنة 1830انفتحت الصحراء على المكتشفين والمغامرين والكتاب الذين افتتنوا بسحر الشرق فركبوا المخاطر والأهوال لاكتشافه والتحقق منه، لكن كتاباتهم استغلتها الدوائر الاستعمارية لفهم عقلية ونفسية سكان الجزائر خاصة أولئك البدو الرحل الثائرين الذين يمثلون رمز الشعوب التي تئن تحت نير الاستعمار، هذه الشعوب التي ما لانت ولا استكانت ولا خضعت للاستعمار والآخر يوميا حتى إذا هدأت فترة وتظاهرت بالخضوع للاستعمار فإنها سرعان ما تشعلها ثورة لا تبقي ولا تذر تدك حصون المستعمر، وقد تكون تلك الثورات محدودة في الزمن والمكان وقد تعود أسبابها إلى تصرفات بسيطة يقوم بها الآخر تخدش وتمس مقدسا عند تلك الشعوب.

إن البحث الرومانتيكي عن الغرائبية يفرض على هؤلاء الكتاب والمغامرين ارتداء الزي التقليدي وهذا ما فعلته إليزابت هبرارت Elisabeth Eberhart، فحوالي سنة 1850 اضطر كل مغامر من هؤلاء على ارتداء الأزياء المحلية لتجنب عبارات القدح والسب وللتنقل دون أن يثير الانتباه.

كتب Madden قائلا:"إن العرب يكرهوننا للباسنا ودينا : للباسنا الذي يبدو لهم ضيقا يلتصق على الجسم ويعطي صورة لهم بأننا قردة" وبارتدائهم للباس المحلي حاول الرحالة والكتاب التمكن من الغرائبي الموجود في العالم العربي مظاهر خارجية معروفة [63]".

وبتطور وسائل المواصلات البحرية ظهر عدد من الرحالة سحرهم الشرق أمثال تيوفيل كوتيي Théophyle Gautier وألفونس دودي Alphonse Daudet وغي دي موباسان Guy De Maupassantوبروبير وكلوديل Claudelوأندريه مالرو André Malraux، كانت الصين في نظرهم عالما بذاته وهي بالفعل كذلك مع أنها لم تتغير منذ أن زارها ماركو بولو حيث كانت بلد الحرير والعلوم الروحانية وفن السحر واستحضار الأرواح وتناسخها.

وقد أصبح أدب الرحلة تقليعة جديدة منذ بداية الرومانسية إلى غاية القرن الــ 20 الذي شهد ظهور أدباء رحالة يجوبون أراضي الشرق منجذبين نحو كل ما هو غرائبي وعجائبي

---

[63]-Joélle Redouane: « l’Orient arabe vu par les voyageurs Anglais », OPU ENL ,Alger,1988 p.11

(Exotique) مثل بيير لوتي Pierre Loti الذي أقام بأسطنبول، ولازال المقهى الذي كان يجلس فيه في القسم الأوروبي من المدينة،للتأمل والتمتع بجمال البوسفور بألوانه المتلألئة مفتوحا يستقبل السواح وهواة الأدب والفن، وقد أطلقت بلدية أسطنبول اسمه على أحد شوارعها عرفانا له واعترافا بجميله مثله كمثل ناصر الدين إيتيان ديني الذي أقام بمدينة بوسعادة فرفع صيتها عاليا باللوحات الفنية الخالدة التي رسمها عن بعض مظاهر الحياة عند المسلمين فيها، مثل لوحة المرأة البوسعادية، ولوحة المستحمات، ولوحة الذهاب إلى الحج، ولوحة ترصد الهلال، ولوحة الكتاب، ولوحة الفلقة .

كتب الشاعر الفرنسي لامارتين Lamartine نصوصا أدبية رائعة عن مختلف الأماكن التي زارها، وكتب أندري جيد André Gide الذي زار بلدان شمال إفريقيا والعديد من البلدان العربية كتابا بعنوان "الأغذية الأرضية" وهو عبارة عن دعوة إلى السياحة عبر الأقطار المختلفة التي زارها.

يقول جان دي جو Jean Déjeux " من 1830 إلى 1900 نظر إلى الجزائر على أنها أرض فتح وأحاسيس جديدة: أرض فتح من خلال شهادة العسكريين، ومذكرات الجنرالات وتقارير المراسلين الحربيين؛ أرض الأحاسيس الجديدة لأن الكتاب السواح كانوا يبحثون فيها على ايطاليا جديدة أو على شرق جديد يلبي أحلام الرومنطيقيين"[64]

[64] - Jean Déjeux : « littérature maghrébine de langue française, Ed .naaman sherbrooke,qué , Canada,1973,p.14.

وفي هذا الجو المليء بروحانية الشرق ومثله العليا الحقيقية والمتوهمة وجد كثير من الأدباء ممن كانوا منعزلين في بداية مشوارهم فرصة سانحة فتجمعوا في حلقات ذاع صيتها وأفكارها في مجمل دول أوروبا، وفتحت جامعات عديدة أقساما للغات الشرقية حيث أقبل الكثير من الأوروبيين على فصولها،واستعانت كثير من وزارات الخارجية في تلك البلدان بأدب الرحلة وتقارير المبشرين وكتابات المستشرقين تمهيدا للموجة الاستعمارية العسكرية التي تلت الثورة الصناعية الأولى بحثا عن أسواق لتصريف منتجاتها مقابل مواد أولية رخيصة مدفونة في جوف الأرض منذ الأزل عجز أهلها عن معرفة كنهها واستخراجها وتحويلها أو تسويقها خاما.

وهكذا استمرت الرحلة الفرنسية في رسم صورة العربي أو بالأحرى صورة الأنديجان المتكونة من الانطباعات الشائعة والمشتركة بين الفرنسيين حيال الآخر، وهي المترسبة عبر قرون طويلة فيما يعرف بالمخيال الفرنسي والذي ابتدعته مختلف الكتابات حول الرحلة إلى بلدان الشرق وبلدان إفريقيا وآسيا وقد خلقت كتب الرحلات الأوروبية عموما والفرنسية خصوصا معرفة متراكمة حول المناطق المكتشفة آنذاك .

عرفت الرحلة الفرنسية تحولا جذريا، مع تنامي التيار الرومانطيقي، إذ توجهت إلى حياة الماضي الوديعة المتمثلة في حضارة الشرق والهروب من المدينة الأوروبية بما فيها من ضجيج وصراع، وهذا إضافة إلى كونها غدت من الضروريات السياسية والاجتماعية لدى مثقفي البلاد المختصة في الأنتروبولوجيا والأتنوغرافيا الذين بلوروا نظريات اجتماعية وعرقية متعصبة سهلت مهمة الجيوش الاستعمارية التي غزت هذه البلدان.

في بداية القرن 19م، شرعت بعض دول أوروبا في احتلال بلدان من الوطن الإسلامي، وممارسة مختلف أشكال القهر المادي والفكري، وقد مهدت لهذا الاحتلال، بدراسات نفسية واجتماعية وأنتروبولوجية، إذ رافق رحالة كثيرون الجيوش الغازية، وكانوا من المثقفين والأدباء الغربيين الذين اهتموا بعادات الشعوب المستضعفة وحددوا آليات وطرق تفكيرها، وبحثوا في ماضيها بل وسعوا إلى إحياء النعرات والقوميات التاريخية القديمة في البلدان الإسلامية بزعزعة النفوس وبث الشك و الفرقة بين أبناء الشعب الواحد –ليس الشك المنهجي الديكارتي الموصل إلى اليقين–، بل الشك المؤدي إلى تفتيت المفتت وتجزئة المجزأ، عدد كبير من هذه الرحلات قام بها الفرنسيون إلى شمال إفريقيا، وإلى الجزائر تحديدا ونقتصر في هذا الجزء من البحث على تقديم بعض ما كتبه رحالة غير مبدعين، درسوا المجتمع الجزائري وقدموا كتاباتهم إلى أجهزة الاستخبارات والدوائر الإدارية المختلفة و نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر :

4–1–"رحلة عبر الجزائر" لبول بورد (Paul Bourd)[65].

4–2–"قسنطينة رحلات وإقامات" للكاتبة لويس ريجيس (Louis Regis)[66]

4–3–"رحلة عبر جزائر اليوم" لـــأوغيست باسيت (Auguste Basset)[67]

4–1 – بول بورد و رحلة عبر الجزائر :

كتب بول بورد Paul Bourd عن الأنديجينا وسياسة الاندماج مجموعة من الملاحظات مسجلا انطباعاته وذكرياته عن رحلته مع نواب فرنسيين إلى الجزائر بصفته مراسلا صحفيا لجريدة

[65]- Paul Bourd : « A travers l’Algérie »,Ed. Challame Ainé, 1865, Paris.
[66]- Regis Louis : « Voyage et séjours », Edit. Galman, 1880, Paris.
[67]- August Besset : « A travers l’Algérie d’aujourd’hui notes et croquis », Ed.Roy Frères, 1896.

المرشد العالمي الفرنسية (Moniteur universel) وقد شارك في الرحلة 13 أعضاء من مجلس الشيوخ وواحد وثلاثين نائبا من البرلمان و 8 صحافيين و 5 كتاب، لم تكن القافلة ذات صبغة رسمية لذلك استقبلها الشعب الجزائري بحفاوة وحسن استقبال، وكان الهدف المعلن للرحلة هو حصر مشاكل السكان والتفكير في حلول ناجعة لها لتحقيق التنمية في الجزائر، لكن الهدف غير المعلن من هذه الزيارة كان هو البحث في هوية السكان وميولهم ومدى قابليتهم للتعاون من حكومة الاحتلال، وذلك بتحطيم الأسس الفلسفية والعقيدية التي يقوم عليها المجتمع الجزائري تمهيدا لإستبداله بمجتمع آخر هجين متكون من عدة أعراف وثقافات وديانات مختلفة، لكنه اصطدم بحقيقة مرة لا يستطيع تجاهلها وإخفاءها وهي وجود فرق كبير بين الفرنسيين والجزائريين، واستحالة اجتثاث الأهالي من أراضيهم وقراهم ومداشرهم، فأوصى بوجوب مسخهم وطمس هويتهم حتى يسهل التعايش معهم، وكان خط الرحلة واضحا انطلاقا من مرسيليا في اتجاه الجزائر العاصمة ومنها إلى عنابة وقسنطينة وباتنة، فبجاية ثم العودة إلى الجزائر للاتجاه نحو الغرب أي نحو وهران وتلمسان وسيدي بلعباس ووهران ومنها قفل الوفد راجعا إلى مرسيليا بحرا، ولم يتورع بول بورد طيلة رحلته هذه عن الخوض في مسائل سياسية تخص الحكم والتنمية ومسألة جعل الجزائر فرنسية، جاء بول بورد إلى الجزائر للتعرف عليها وأخذ صورة عنها، لم يزرها بعين الفنان ولا بعين الأركيولوجي، ولا بعين المؤرخ بل بعين الباحث المحب لوطنه فرنسا الذي يتمنى لها أن تثبت أقدامها، ومن خلال سرده المطول للرحلة يشيد بسمو العرق الأوروبي حتى أنه زعم أن الأرض للإنسانية جمعاء وللأجناس العليا الحق في محاسبة الأجناس الأقل منها تطورا على الثروات التي بين

أيديها كما أنه لم يتورع في تقديم المسوغات لتثبيت مشروعية وجود الفرنسيين في الجزائر، مقدما حلولا ميدانية تمحورت أساسا حول ضرورة إدخال الأهالي "الأندجينا" الى التعليم الفرانكوفوني وجعله إجباريا، وكان بورد منظما إلى (Jules Ferry) واميل مسكراي (Emile De Maskeray)[68].

وفي تقريره يبدأ بالحديث عن رحلته مستفيضا في وصف النشاطات الأوروبية الاستعمارية والموزعة على مختلف دول العالم في إفريقيا وآسيا وأمريكا وأستراليا ممثلا لذلك بما حدث في الهند ويافا الفلسطينية حالما بأن تتحول كل أراضي المعمورة ملكا للأوروبيين مهاجما بشدة كل الأصوات التي تطالب فرنسا البقاء داخل حدودها، والاهتمام بشأنها الداخلي وهذا في نظره دعوى إلى التقهقر والجمود، كما يرد على بعض الذين اعتبروا فرنسا ليست نموذجا يحتذى به في ميدان التعمير والاستعمار، كما رد أيضا على الذين يزعمون أن الأنديجان يستحيل تبديل عاداتهم وتقاليدهم.

وما يهم من رحلة بورد هو ما خص به الأنديجان والصور التي نقلها عنهم، والألوان التي قدم بها الأنديجان الجزائري على الخصوص،إذ وصفهم بالسلبية متأثرا خاصة بما شاع من كتابات معاصرة له عن هذا الموضوع، كما أنه لم يستطع إخفاء طابع الغرور والتعالي عن كل ما هو جزائري مستغربا تارة،نافرا ومستهجنا أو ساخرا تارة أخرى، ومن أهم الصور التي التقطها ونقلها إلى قرائه: هو أن الأنديجان يمقت اللباس الأوروبي لأنه يشد جسمه شدا وهو بالنسبة لهم لباس غير

---

[68]– أنظر: Paul Bourde : « A travers l’Algérie », Op Cit, p.32.

محتشم، لذا يبقى الأنديجان متدثرا في برنوسه وقد فاته أن اللباس الأوروبي ملائم للطقس وكانت أمنيته في هذا المقام أن يتحول كثير من الأنديجان إلى ارتداء لباس الأوروبيين لأنهم سبقوهم في الحضارة.

وأكثر صورة أثارت انتباهه صورة الأطفال البسكريين المنتشرين في الجزائر العاصمة والذين يمارسون مسح الأحذية وتلميعها، والطفل البسكري يلبس القندورة والطربوش الأحمر وليس له ثروة سوى علبة صغيرة فيها لوازم العمل ويغتنم بورد الفرصة هنا للحديث عن القندورة مقللا من شأنها حيث اعتبر طريقة قصها بدائية فهي تشبه في نظره الكيس وبه 3 فتحات، ولاحظ أيضا اتساخ لباس الأنديجان مستشهدا بكلام أحد المعمرين من أن المسلمين يكهرون 6 الماء، ولذلك فالقندورة عندهم لا تكون بيضاء إلا يوم ارتدائها أول مرة[69].

وينتقد بورد ظاهرة القباب ومزارات الصالحين قائلا بأنها متشابهة جميعها هندسيا وهي دليل على انحطاط ذوق الأنديجان، أما مسكنهم في الأحياء العربية فهي منعدمة النوافذ وتخنق الأنفاس نتيجة انعدام التهوية، وانتقد كذلك تخطيط المدن قائلا بأنها أكثر تعقيدا من المتاهة تزيدها سوءا المنحدرات الكثيرة والسلالم المتعبة وحتى الدكاكين أثارت استغرابه لانخفاض أسقفها إذ لا تسمح للموجودين بها بالوقوف مستقيمين، وقد لاحظ أيضا أن شوارع قسنطينة موزعة حسب المهن، فبها شارع لصانعي الأقمشة الصوفية، وآخر للحدادين وآخر للخياطين، وهكذا، وبدت له تلك المهن بدائية وبسيطة في وسائلها وأدواتها، ولا ترقى إلى مستوى الصناعة الأوروبية التي تقوم على

69- أنظر المصدر السابق، ص35 وما بعدها .

استخدام الآلات المتطورة، ويستمر بول بورد فيقارن بين العرب والبربر و بين العرب المتمدنين والبدو الرحل والموريسكيين، فيصرح بداية أن الأنديجان يؤمنون بالخرافات، ولا يسمح جهلهم بتعليل الظواهر لذلك يبحثون عن التفسير الماورائي للأحداث المحيطة بهم وهكذا أنتج الإنسان القديم الأسطورة، فهم أيضا يصنعون الأساطير والخرافات "فكل نبع، وكل نافورة، وكل جدول وكل صخرة وكل جبل وكل مغارة وكل طلل وكل بناية حتى ولو كانت بنايتي يرى أنها من خلق الله أو من صنع أحد الصالحين"[70].

ويرى أيضا أن الأنديجان بسيط في حياته فأربعة دورو تكفيه ليتغذى ويشرب ليلتحف بعد ذلك في برنسه وينام ليحلم حلما جميلا يدخله إلى مغارة علي بابا، وتظهر في هذا الجزء السخرية الواضحة معبرا عن سياسة التشويه والمسخ ونشر الصور الزائفة ونقلها، كل هذا تبريرا للتصرفات الوحشية الممارسة ضد الأنديجان، رأى بورد في حياة الأنديجان مظاهر الجمود وعدم الابتكار والتقشف في الحياة، وتحدث عن المورسيكيين والعرب والقبائل والاباضيين (المزابيين) في تعبيره عن تعدد الأعراق في الجزائر يقول: أن الجالس في سطح مقهى بقسنطينة يستطيع أن تمر على ناظريه في بعض دقائق مختلف أجناس الجزائر، أما انطباعاته عن المرأة الجزائرية فهي لا تخرج عن الإطار السلبي دائما وفي الصورة التي رسمتها ألف ليلة وليلة، خادعة خائنة وراء كل المصائب ماكرة، وكان قبل رحلته يحمل معه صورة حالمة عن الجمال المشرقي فاصطدم بعكس ذلك ورأى أن المرأة في الجزائر سواء العربية أواليهودية أوالقبائلية على حد سواء تشتركن في عيب البدانة،

---

[70]- نفسه، ص 60 .

بالإضافة إلى أنها –أي المرأة– انفرادية ومتخلفة ومنعدمة الثقافة وليست بها تلك الرقة ولا اللطف الذي تمتاز بهما المرأة الأوروبية ويعلق على الحايك الذي تلبسه العربية من أنه ذو لون أزرق قبيح لم ير شيئا أقبح منه، وهو يلف المرأة لفا لا يظهر منها شيئا[71].

4-2- لويز ريجيس Louise Regis قسنطينة رحلات وإقامات :

لويس ريجيس كاتبة فرنسية أقل شهرة من مواطنها بول بورد، انتقدت سياسة الكولون وعطفت على الأنديجينا، وقد ظهرت وعرفت عند القراء بعملها الأول "رحلة إلى بسكرة" مقنعة بشخصية رجل لكن شخصيتها الأنثوية بدت واضحة واكتشفت بعد ذلك عندما كتبت "قسنطينة رحلات وإقامات".

تبدأ في وصف رحلتها بالسرد بداية من نزولها بميناء سكيكدة، وكانت آنذاك تسمى "فليب فيل" للتوجه إلى قسنطينة ودامت إقامتها بها 4 أشهر من سنة 1879 لتغادر إلى باتنة ثم بسكرة لتزور منطقة سيدي عقبة ثم اتجهت إلى بجاية والجزائر العاصمة والبليدة والمدية[72].

تنوعت موضوعات رحلة لويس ريجيس وتوزعت بين التاريخ والدين والثقافة والمجتمع والسياسة والاقتصاد معرفة قراءها بأحوال الجزائر والجزائريين وسياسة التعمير وممارسات المعمرين، فركزت على عادات الأنديجان وخصوصياتهم الأثنوغرافية، فعرضت بالحديث عن الحياة اليومية للرجال والنساء وكل ما لاحظته أثناء تجوالها مما يشكل موضوعات مثيرة وفنطازيا للأوروبيين،

71- المصدر نفسه، ص43-44.

72- أنظر: Régis Louise : « Voyages et séjours », p 73, 80-81

واجتهدت في تقديم معلومات غزيرة ودقيقة مدعمة بشواهد من تراث الجزائر وحتى من القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام رجال الدين والمؤرخين ومن بين الموضوعات، نذكر: العيساوة – الإخوان الصالحين- الإسلام- القرآن الكريم – الرسول (ص) وزوجاته وكذلك عادات العرب في مزاولة أعمالهم اليومية وزيارة النساء للمقابر يوم الجمعة، وعادة حمل الغذاء للتصدق بها عند المقابر، وحول مساجد العرب والمسلمين، وزواياهم وبيوتهم ومقاهيهم ومطاعمهم وحماماتهم كما تطرقت إلى بعض شؤون الأسرة كالزواج والطلاق وحال المرأة العربية وأوصافها الجسمانية ومقاييس الجمال وأدواته.

وقد استحسنت لويس ريجيس في رحلتها ما هو محلي لم تمسسه اليد الأجنبية بالتغيير والتبديل، إذ وجدت مدينة قسنطينة محافظة على طابعها المحلي، لكنها تأسفت على هذه الصورة التي لا تدوم لأن مشاريع إنجاز أحياء أوروبية في طريقها ومعنى ذلك أنه لا بد من تهديم أحياء عربية بكاملها وهو مسار استهجنته وعدته أخرقا وغير موفق،إذ ستفقد المدينة زوارها من سكان الصحراء الميسورين خلال فصل الصيف،وقصد الكاتبة هنا ليس الخسارة المتمثلة في زوال هذه البيوت العتيقة بل في ضياع مداخيل إضافية ينفقها المقيمون صيفا بحثا عن مناخ معتدل هروبا من نار وحرارة الصحراء التي تفوق حدود المعقول، و لم تسلم المعلومات التي قدمتها الكاتبة عن الإسلام والدعوة المحمدية من بعض الإدعاءات والأكاذيب والتحريفات كزعمها أن الله تعالى يأمر بمحاربة المشركين الكفار وليس المسيحيين، وأن الرسول قد تلقى المعارف عن شيخين كبيرين.

ارتحلا في البلدان واصطحبا معهما العلوم والمعارف عن الأديان المختلفة لتقلينها له، وبذلك جاء القرآن متأثرا بالتوراة والإنجيل وكلام آخر يطعن في السنة المحمدية .

أما عن جمال الطبيعة فقد أعجبت بتلك المناظر الموجودة في قرية القنطرة "أول مرحلة تشاهد فيها الطبيعة المشرقية حقا" [73] ، ففي بسكرة عرفت الحياة الإقطاعية للعربي مقابل الحضارة الفرنسية و"الطبيعة بحليبها ممثلة في الحدائق التي صفت بأيدي الكولون، ولا تشبه بسكرة فرنسا في أي من موجوداتها"[74]. فالأنديجان عند لويس ريجيس متدين لا يقبل دينا بديلا للإسلام وفي اعتقاده أن المسلمين مكرمون به فإن تخلوا عنه أذلهم الله، لذلك ترى أنه من الطبيعي أن يرفض المسلمون الاندماج في حضارة أوروبا واعتناق ديانتها، وقد عبرت عن إعجابها بصوت المؤذن وهو يدعو للصلاة ويرفع الآذان كما أعجبت بإخلاص الأنديجان لدينهم ومواظبتهم على أداء الصلاة حتى يوم الجمعة حيث يكونون أكثر عددا، وسجلت الكاتبة ظاهرة جمال المرأة القسنطينية وتهجو في المقابل المرأة اليهودية وهنا في هذه النقطة بالذات تناقض بول بورد الذي نفى وجود الجمال المتميز في المرأة الجزائرية، ولعلها الوحيدة بين الكتاب الرحالين Les écrivains voyageurs التي وجدت المرأة الجزائرية جميلة كما وجدت شبها بين المرأة البدوية والقرويات الفرنسيات في حالة النشاط والعمل الدائم، كما أنها انبهرت بجمال المرأة في قرية القنطرة المشهورة بجمال نسائها،كما لاحظت احترام المسلمين لموتاهم لدرجة السماح لنسائهم بزيارة المقابر يوم الجمعة خاصة، فحتى المحجبات منهن يخرجن في ذلك اليوم رفقة الخادمات، كما أشادت بطقوس الدفن والتأبين، لكن

---

[73]– نفسه، ص247.

[74]– نفسه، ص247.

الكاتبة تقف موقف تأمل وحيرة في حال الأنديجان وتتمنى له أن يتقرب من مؤسسات فرنسا التعليمية، بل لا يتردد في طرق أبواب الدراسات العليا، فهو ليس أقل ذكاء من الأوروبي لكنه للأسف كما تقول "من جنس محارب، وطبع مستغرق في التأمل الديني، لذلك لن يندمج معنا إلا بعد مجهودات قوية، وبقرار حاسم سيكلفه الكثير حتى يستطيع دخول مجرى الحياة والكينونة الأوربية"[75].

وتحدثت عن عدم إقبال العرب على الدراسة فأرجعتها إلى سياسة الحكومة الفرنسية التي لم تفتح أمام العرب إلا 4 وظائف: قايد أوقاضي أو شيخ قبيلة أو صبائحي وهي كلها تخدم وتدعم سلطة فرنسا، ويظهر الأنديجان في عين الكاتبة لويس ريجيس رجالا كرماء بسطاء حيث حظيت بضيافة عدد منهم فهم ذوو أخلاق حسنة وعادات مقبولة وجميلة يظهر ذلك في حرارة لقائهم، فلهم عزة نفس لكنهم يحترمون المراتب والطبقات وكبار السن ورجال العلم والدين والمرابطين والصالحين ويحترمون أيضا رجال الدين المستحيين تطبيقا لتعاليم دينهم، واستثنت من هذا الوصف والإطراء رجال عيساوة الذين وجدهم غريبي الأطوار فطقوسهم مخيفة ومقززة وهم غير ملتزمين دينيا مهملين لواجباهم يعيشون حياة كسل ولهو، يتعاطون الحشيش ويقضون وقتهم ممدين في الشوارع والساحات، نصف أموات بسبب مفعول الحشيش، وترجع أصولهم إلى المغرب الأقصى، كما انتقدت الشباب من الطبقة الإقطاعية الذين يواظبون على الجلوس في الشوارع قرب الدكاكين يضيعون وقتهم في مراقبة المارة والحديث في الكلام الفارغ المؤدي عادة إلى النميمة وهي

[75]– المصدر نفسه، ص331.

صفة مستهجنة ومحرمة دينا، وقد لاحظت كذلك التمييز بين الذكر والأنثى الذي يحس به العربي فولادة الأنثى لا تثير فيه الغبطة كولادة الذكر وتعلل ذلك بالطبيعة المحاربة للعربي لأن مجيء الولد الذكر هو مصدر قوة وسيطرة.

4-3- أوغست باسيت (Auguste Besset) في رحلة عبر جزائر اليوم :

يبدو أن أوغست باسيت مصاب بعقدة الاستعلاء، إذ يسجل في رحلته ما شاهده من عادات سيئة عند الأنديجان ومنها عادة التسكع في الشوارع والساحات العامة وجلوسهم المطول في المقاهي الشعبية وإهمالهم للأعمال الفلاحية وتفضيلهم العمل في المدن كحمالين أو نادلين في المقاهي، كما أنهم مهملون لواجباتهم الدينية قبل الزواج، فالشباب الجزائري لا يتوجه إلى المساجد لأداء الصلاة ولا يتورع أو يتردد في تناول الكحول، لكنه بعد الزواج يصبح من جديد مسلما، والحال نفسها مع كبار السن من الذين عملوا في الجيش الفرنسي فإنهم وبعد تقاعدهم لا يستطيعون مقاومة ذكريات الطفولة ومشاعر التعلق بالأوطان فيعودون إلى قراهم ويمارسون من جديد تعاليم الإسلام، ويندمجون في المجتمع، وإنهم -يعني المتقاعدين من الجيش الفرنسي- تصيبهم بعد نهاية الخدمة نوستالجيا الصحراء فيديرون ظهورهم للحضارة الأوروبية .

فهؤلاء الكتاب الذين سبق ذكرهم نموذج لتيار عام في الكتابة سخروا أقلامهم وخيالهم وأحلامهم لخدمة الظاهرة الاستعمارية، فاتفقوا على إشاعة الانطباعات السيئة وإطلاق الأحكام السلبية على الجزائريين الكاتبة لويس ريجيس،التي كانت أقرب الى الموضوعية، لكنهم في الغالب

ذوو عقلية استعمارية، أحلامهم ضخمة، وطنيون للغاية إلى درجة أنهم بذلوا مجهودا كبيرا لخدمة السياسة الاستعمارية، وإعلاء الجنس الأوروبي ومحاولة بث الشقاق بين أبناء الجزائر، وقد حاولوا تكريس المفارقة القائمة بين صورتين: صورة الأرض الجميلة الخصبة بمناخاتها المتعددة عبر السنة، مقابل صورة الإنسان المتوحش الكسول البدائي، كما قابلوا بين الجنسين العربي والبربري ليضعوا البربر في الزاوية البيضاء المشرقة والعرب في الزاوية السوداء المظلمة، كما قابلوا بين الأنديجان ونقيضه المعمر الأوروبي وبطبيعة الحال فقد مدحوا المعمر ووصفوه بالنشاط والحيوية والأناقة والتحضر بينما وصفوا الجزائري بالعكس تماما فهو مثال للخمول والتهاون وإهمال الأرض والتخلف.

5-أدب الرحلة الفرنسي :

ما بين القرن 15م و 20م، تمت معظم أسفار كبار الرحالة الأوروبيين، كانت الرحلة إلى الجزائر تدوم عدة شهور وتكلف صاحبها أموالا كثيرة ولا يستطيع القيام بها سوى الأثرياء المنتمين إلى طبقة النبلاء وكانوا يتخذون من بعض الأهالي مرافقين لهم، فالرحلة السياحية أو الاستكشافية إلى الجزائر اعتبرها شباب الارستقراطية الفرنسية وسيلة للتحرر، إن لم تكن وسيلة للمجون والسياحة الجنسية في ظل إطار غريب خارج الأخلاق المسيحية رغم أن كل هؤلاء الكتاب السواح والمستكشفين والمغامرين كانوا يحملون راية الصليب ويحلمون بالخلاص، بل أن

بعضهم كان مبشرا يريد نشر المسيحية في هذه الربوع، إن روايات هذه الرحلات تقدم عن الجزائر صورا تخيلها بعضهم و لم يعشها و لم يرها، لقد حكى هؤلاء عما يظنون أنهم شاهدوه أو عما يتمنون مشاهدته وكانت الصور المصاحبة لحكاياتهم خادعة أيضا ومثال على ذلك ما كتبه ألفونس دوديه في روايته طرطران دي طراسكون التي هي موضوع دراسة في الباب الثاني، إذ كان الرحالة يميلون إلى استلهام بعضهم البعض كما كانوا يعملون من أجل توثيق شهاداتهم.

وبحلول القرن 17م ازدهرت هذه الرحلات، واشتهرت باريس بمجالس المثقفين بعد أن كانت روسيا قبلها هي ميعاد الأنسانويين، في القرن 20م تطورت وسائل المواصلات فمكنت جيلا جديدا بين الاتصال بحضارات بعيدة وشعوب تختلف عنها بشرة وحضارة ولغة وعادات وتقاليد أكسبت أفراد هذا الجيل خبرة واسعة وفتحت أعينهم على حقائق جديدة جعلتهم يعيدون النظر في مسألة المركزية الأوروبية التي كانت تجعلهم يعتقدون بأن أوروبا هي مركز العالم وأنها هي المحور الذي تدور حوله الأرض بمن فيها، اكتشف هؤلاء الرحالة حقائق جديدة جعلتهم ينبذون المطلق ويتبنون النسبية التي كانت أهم إنتاجات الحضارة الأوروبية.

إن هذه الرحلات كانت من الأهمية بمكان إذ تمخض عنها أدب جديد نتج من رحم الحكايات المروية والمكتوبة، فأضحت "موضة" جديدة متجددة برز بفضلها أدباء سائحون جابوا أراضي الشرق منجذبين نحو الغرائبية، فأنتجوا أدبا هاما يعكس

سيكولوجية الشعوب وأهم مجالات التأثير والتأثر فاستفاد الأدب الغربي من اكتشافات تلك الأقطار التي انجذب إليها المغامرون والمبشرون والتجار والأدباء والعلماء والعسكريون الذين حطوا رحالهم مدججين بالأسلحة لاستعمار تلك الأقطار نتيجة لتطور النظام الرأسمالي وظهور أول بواكير الثورة الصناعية الأولى التي كانت في حاجة إلى أسواق لتصريف منتجاتها المادية، وفي المقابل كانت أوروبا تعيش البدايات الأولى للخواء الروحي نتيجة انشطار الكنيسة الكاثوليكية في روما وظهور البروتستانتية التي خففت من غلو الكنيسة وأدت إلى تحرر حكام الأقطار الأوروبية التدريجي من سيطرة البابا.

أسهم هذا النوع من الأدب في نشأة تيمات خصبة ثرية منها على وجه الخصوص تيمة "الوحش الطيب" المحبذة لدى مونتاني Montagne وروسو Rousseau وشاتوبريان Chateaubriand وآخرين الذين استغلوها لشجب الانحلال الخلقي والرشوة في المجتمعات الأوروبية.

إن علاقات الغرب بالشرق تضرب بجذورها في أعماق التاريخ فقد كانت نصوص "العهد القديم" الأساس الأصلي لحركة الاستشراق فيما بين القرن 17 و 19م، لأن نصوصه ولدت كليشيهات متكررة من الصور الأسطورية عند الشرق تشبه في مجملها تلك التي وردت في مختلف الإنتاجات الأدبية الاستعمارية، لأن الغرب لم يولد من عدم، بل كان نتاج تأثر بمعارف الشرق وعلومه خلال العصور

القديمة حينما كانت فلسطين ومصر وبابل تحتل مركز الصدارة في تطوير العلوم والتقنيات من فلسفة وفيزياء ونبات وصناعة المعادن (حضارات النحاس والبرونز والحديد)والطب التي ورثها الإغريق إذ كان فلاسفتهم وعلماؤهم يتعلمون مبادئ الرياضيات بالإسكندرية والفيزياء والفلك في فلسطين وتركيا القديمة وفي مراصد بابل ومصر وفلسطين في وقت لم تكن اليونان ولا روما تملك الكتابة الصوتية Ecriture phonétique التي تبناها الإغريق في القرن السابع قبل الميلاد بعدما اخترعها علماء اللغة الفلسطينيون [76].

إن الغرب بحاجة للنظر من زاوية صحيحة إلى الشرق، و في حاجة أيضا لإعادة مسح المجال المعرفي وتهيئة مناظيره خاصة اللسانية منها، كي يعمق معرفته بالشرق جيدا فالأمر إذن يتعلق بإعادة تجديد الأبحاث مع تبني منهجية أكثر إحكاما، وهي التي يسميها المقارنون اليوم **بالصورائية** مع تشكيل فرق بحث دولية يقوم دورها أساسا على دراسة أثر الرحلات على الشعوب المكتشفة، بالنظر إليها على أساس أنها مجتمعات قائمة على تراثية وقيم معينة تراها هذه الشعوب إيجابية و قد يراها الغرب سلبية لكنها قيم ساهمت في دورة الحياة لديها وحمتها وحفظت كيانها من الأزمات الغابرة.

[76] -Pierre Rossi : « la cité d'Isis ou l'histoire des arabes », nouvelles Editions Latines, paris, 1976.أنظر

إن عقدة الإستعلاء التي ينطلق منها الغربي في نظرته إلى الشعوب الأخرى

انطلاقا من مفهوم المركزية الأوروبية التي وصفها René Etiemble بأنها سفاهة

ثقافية تجهل كل الجهل الآداب العربية والهندية والصينية التي تشكل لبنات أساسية في

صرح الثقافة العالمية [77].

[77]- René Etiemble : Qu'est ce que la littérature comparée ? op cité p37.

الباب الثاني

صورة الجزائر في الأدب الفرنسي

الفصل الأول

صورة الجزائر في أدب ألفونس دوديه

ألفونس دوديه Alphonse Daudet [78]

1- حياته:

ألفونس دودي ه كاتب وروائي ومسرحي ساخر، زار الجزائر في أواخر سنة 1861 للاستشفاء من داء السل عملا بنصيحة طبيبه، فقضى بها 03 أشهر زار فيها منطقة الجزائر والبليدة وأقام مدة في مليانة وزار المناطق المجاورة لها وكتب من وحيها عدة أقاصيص ومذكرات سفر، نشرت في الصحافة ثم ظهر بعضها في مجموعة "رسائل طاحونتي " Lettres de mon moulin سنة 1873، وبعضها في حكايات الاثنين سنة 1873، كما استوحى من هذه الرحلة روايتي كاملة بعنوان "تارتاران دو ترسكون " Tartarin de Tarascon سنة 1872، وكتب قصصا أخرى تجري أحداثها في الجزائر ومنها: في مليانة ويليها الجراد وأخيرا لا آخرا الموسوم في 15 أوت التي صدرت في الترجمة العربية التي قام بها د.أحمد منورتحت عنوان وسام الآغا .

قصة "مليانة " وردت في كتاب ه رسائل طاحونتي [79] وسميت هذه المجموعة بهكذا عنوان إشارة إلى طاحونة اشتراها الكاتب في منطقة غابية معزولة في الجنوب

78- "في مليانة" و "الجراد" و" موسوم 15 أوت": قصص ترجمها الأستاذ أحمد منور و صدرت في كتيب بعنوان : الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن 19م طبع في الطباعة الشعبية للجيش –الجزائر 2007 صدر على نفقة و مبادرة من وزارة الثقافة بمناسبة الاحتفال بالجزائر عاصمة للثقافة العربية.

الفرنسي واتخذ منها مكانا للتفكير والكتابة، وأطلق اسمها على قصصه التي كتبها

فيها وجمعها في كتاب ومنها مذكرة السفر التي كتبها في زيارة لمدينة مليانة.

2- قصة في مليانة :

يستهل الكاتب الفرنسي دوديه قصته "في مليانة" بدعوة القارئ إلى قضاء نهار

في مدينة صغيرة وجميلة ، فيصف طقس ذلك اليوم ب:"كان المطر ينذر بالسقوط

والسماء رمادية ومرتفعات جبل "زكار"تتدثر بالغيوم، وعبر النافدة المفتوحة على

الأسوار العربية كان يلهي نفسه بمحاولة إشعال السجائر وتصفح بعض الكتب التي

وجدها في ذلك الفندق الصغير الذي كان يقيم به، لكنه كان شارد الذهن وأكثر

وجوما حتى دقت الساعة في ساحة البلدية فخرج من الفندق إلى أن بلغ الساحة

الكبيرة حيث كانت الفرقة الموسيقية ، وهي فرقة نحاسية عسكرية تنتظم حول

قاعدتها ، فشاهد من إحدى نوافذ مقر القيادة الجنرال محاطا بـــ " أوانسه" في الوقت

الذي كان فيه نائب عامل العمالة يجوب الساحة متجولا فيها طولا وعرضا وفي

إحدى الزوايا كانت هناك مجموعة من الصغار العرب، نصف عراة يلعبون

بالكويرات ويصيحون صياحا شرسا، وهناك عجوز يهودي يرتدي ثيابا رثة جاء

يبحث عن شعاع الشمس كان قد تركه بالأمس في ذلك المكان وهو مندهش لأنه لم

يعثر عليه.

[79]- Alphonse daudet : « lettres de mon moulin » Ed. Booking international ,1993, paris.

يتعجب الكاتب من السعادة الغامرة التي كانت بصدور أعضاء الفرقة النحاسية:

-إيه كم هم سعداء موسيقيو جنود الصف الثالث، عيونهم مركزة على النوتة، يترنحون مع اللحن ومع ضجيج الموسيقى ،لا يفكرون في شيء إلا في عد أوزان موسيقاهم وأرواحهم كل أرواحهم معلقة مع ذلك المربع الورقي" [80]

كان صخب الموسيقى يبعث في الكاتب الملل والضجر فتسائل كيف يمضي ما تبقى من يوم الأحد هذا، فلم يجد أمامه إلا دكان سيد عمر مفتوحا، فدلف إلى داخله يريد من وراء فعله هذا تمضية بعض الوقت ، يعرف القارئ بالسيد عمر بقوله "إن السيد عمر ليس تاجرا على الإطلاق فهو أمير تجري في عروقه دماء الأمراء، إنه ابن أحد دايات الجزائر القدماء، الذي قضى مخنوقا بيد الجنود الانكشارية" [81] لكنه وبعد مقتل والده لجأ إلى مليانة رفقة والدته التي كان يحبها حبا جما ، حيث عاش مثل سيد عظيم ، فيلسوف ، بين كلاب صيده وصقوره وخيله ونساءه في قصور جميلة ذات حدائق غناء دون أن ينسى بأنه أصبح حليفا لفرنسا بعد أن كان في صفوف المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر وكانت مليانة إحدى المدن الهامة التي اتخذ منها عبد القادر مركزا له ولا زالت داره ومحكمته ومصنع الأسلحة قائمين حتى الآن.وانتقاما

---

[80] Alphonse Daudet ,Op Cit, p 223

[81]- نفس المصدر، ص 223 .

منه دخل جيش أمير المدينة في غياب السيد عمر ونهب قصوره وقطع أشجار برتقاله

وصادر خيوله ونساءه وقطع رأس والدته . يصف الكاتب ردة فعل السيد عمر بأنه

كان رهيبا وعظيما وأصبح منذ ذالك التاريخ أفضل وأشرس جنود فرنسا ضد الأمير

ويصفه بأنه كان في الستين من عمره ورغم السن وأثر الجدري الخفيف على محياه

فقد ظل جميلا له أهداب طويلة وابتسامة لطيفة وه يئة أمير دمرته الحرب، ولم بتق له

إلا ضيعة واحدة في سهل الشلف ودار عربية في مليانة، حيث يعيش وأبناءه ويحظى

لدى رؤساء الأهالي بتقدير كبير، لذلك اتخذوه حكما بينهم عن طيب خاطر كلما

شب بينهم خلاف، وحكمه يكون في معظم الأحيان قانونا لا يطعن في مصداقيته

وتنفذه الأطراف المتخاصمة والمحتكمة لديه عن طيب خاطر.

حضر الكاتب بالصدفة محاكمة جرت أمامه وكانت تفاصيل القضية كما يلي:

إن قائد بني زقزو ق على خلاف مع أحد اليهود حول قطعة أرض وكان الموعد قد

حدد لهذا اليوم بالذات، واستدعى الشهود إلا أن اليهودي غير رأيه فجأة وجاء

بمفرده ليعلن أنه يفضل عرض القضية على قاضي الصلح الفرنسي عوضا عن السيد

عمر. وكان هذا التحول من طرف اليهودي مثار سخرية من السيد عمر ومثار

سخط وسب وشتم تعرض له اليهودي خاصة من ذلك الاسباني الذي جاء يشهد

لصالح القائد إذ اقترب من اليهودي وصب على رأسه سلة من الشتائم بكل اللغات

ومن بينها لفظ "فرنسي "، استح ى الكاتب من ذكره لبذاءته وهو ما جعل سيد عمر

الذي كان يعرف الفرنسية يحمر خجلا لسماعه في حضور والده ويغادر المكان كما تقتضيه التربية والحشمة والتقاليد. تراجع اليهودي خلفا حتى بلغ الباب وهو يرتعد وأسرع الاسباني خلفه وقد ثارت ثائرته فلحق به في الشارع وضربه على وجهه مرتين، فخر اليهودي على ركبتيه وأطبق يديه على صدره، وهب واقفا وأ جال ببصره برياء في الحشد الذي كان يحيط به المشكل من مالطيين وماهونيين وزنوج وعرب وكانوا كلهم متحدين في كره اليهود، تردد اليهودي هنيهة وأمسك بتلابيب الحاضرين الذين شهدوا الواقعة لكنهم اجمعوا على أنهم لم يروا شيئا نكاية في اليهودي الذي ترجى الجميع ليشهدوا له، ولحسن حظه مر في تلك اللحظات اثنان من بني ملته فاستنجد بهما . وفي الحي اليهودي أحدثت الواقعة ضجيجا وصدى كبيرين فغادر الجميع دكاكينهم ووقفوا جماعات يتحدثون في غضب وانفعال والنساء رائحات غاديات نائحات بين هذه الجماعة وتلك . وتقدم قزم قبيح المنظر متنهدا قائلا "أرأيت كيف يعامل اليهود المساكين؟ إنه شيخ مسن لقد كادوا أن يقتلوه" وكان الشيخ اليهودي أقرب إلى الممات منه إلى الحياة، فقد مر أمام الكاتب وقد انطفأ نظره وتغير لون وجهه ، يجر رجليه ولم يكن هناك شيء يمكن أن يعيد إليه عافيته إلا تعويض سخي أو ذهاب إلى وكيل أعمال بدل الطبيب لطرح القضية أمام قاضي الصلح الفرنسي للظفر بتعويض يثلج صدره ويشفي غليله.

خرج الكاتب من الحي اليهودي مارا أما "المكتب العربي" [82] فدخل إليه لزيارة المترجم ، وكان فناء المكتب العربي مزدحما بالعرب الذين كانوا يلبسون أسمالا بالية بينما كان الترجمان أشقر يرتدي بذلة سماوية اللون تبدوا وكأنها فصلت على جسمه الرشيق ، إذ كان خيالا من الجنود الممتازين يفيض دعابة ومرحا يتكلم عدة لغات ويطبق المنهج الديكارتي وكان قد تعرف على " رينان" * في مدرسة اللغات الشرقية وكان من هواة الرياضة أيضا، وكان طباخ كسكسى ماهر سواء في الخيام العربية أو في المآدب التي تنظمها زوجة نائب عامل العمالة [83] فهو باريسي أصيل لذا أقبلت النساء عليه من كل حدب و صوب.

خرج الكاتب من المكتب العربي وما كاد يبلغ الشارع حتى باغتته عاصفة قوية مطر ورعد وريح السيروكو [84] فأسرع للاحتماء منها مقتحما أول باب صادفه فإذا به يقع داخل وكر للمتشردين كانوا يتكدسون تحت أقواس فناء موريسكي مجاور لمسجد مليانة، وكان الجميع يتحلقون حول رجل من الأهالي، طويل القامة شاحب الوجه، مزهو بنفسه ملتف في برنس اسود، كان يحكي لهم كيف أنه قبل عدة أيام كان قد تصارع في جبل زكار مع فهد فقتله وأن الفهد بتر نصف ذراعه،

---

[82]- المكاتب العربية Bureaux arabes chargés des affaires indigènes نظام إداري و عسكري يختص بشؤون الجزائريين. كان الفرنسيون كان أرسوا دعائمه في بداية الاحتلال في مختلف مناطق الجزائر ثم أصبح فيما بعد مقتصرا على مناطق الجنوب و يتكون المكتب العربي من ضابط و قاض و اثنين من الكتبة من ضباط الصف.

*رينان : مستشرق فرنسي.

[83]- نائب عامل العمالة Sous préfet يعادله الآن رئيس الدائرة في النظام الجزائري لكن نائب العمالة آنذاك كان يختار وفق مقاييس مضبوطة أهمها أنه يكون خريج المدرسة الوطنية للإدارة بباريس بخلاف الآن.

[84]- ريح جنوبية ساخنة محملة بالأتربة.

فأصبح يتردد يوميا على المكتب العربي ليضمد جراحه، وكان المنتظرون يستوقفونه في الفناء في كل مرة ليروى لهم قصته عارضا ساعده الأيسر الذي كان مربوطا إلى صدره وملفوفا بأقمشة ملطخة بالدم.

وخفت العاصفة فاغتنم الكاتب الفرصة وأسرع بمغادرة فناء العجائب هذا واتجه لتلبية الدعوة التي وجهها له سيد عمر، كان العشاء فاخرا ونهايته مسك إذ كان السيد عمر لا يشرب إلا الشمبانيا عندما يدير خدمه ظهورهم.

انصرف الكاتب الراوي حيث يقتضي التقليد العربي أن ينصرف الضيوف باكرا، لكنه تساءل أين ينهي ليلته تلك وما كاد ينهي تساؤله حتى وجد نفسه أمام المسرح فدلف إليه، وكان مسرح مليانة في الأصل مخزنا للعلف حول كيفما اتفق إلى قاعة للعرض، تضاء وقت الاستراحة بمصابيح زينة.

- تفرج على شطر من المسرحية التي كانت تلعب على الخشبة و لم يكن فوقها ما يثير الضحك والشفقة أكثر من منظر يهوديتين صغيرتين كانتا تقفان في ركن من الخشبة خجلتين و مملوءتي الوجه بالمساحيق والأصباغ، عاريتي الصدر، متصلبتي الجسد بسبب البرد والخجل.

خرج من المسرح وأقفل راجعا إلى الفندق يسير على مهل بمحاذاة الأسوار، كان الجو لطيفا والسماء صافية تقريبا وكانت في نهاية الطريق ترتفع بقايا حائط

أطلال معبد قديم وقد أصبح مقدسا إذ تأتي إليه النساء العربيات كل يوم لتعلق عليه النذور، مثل خرق الحياك والفوط، أو ضفائر الشعر المخضبة بالحناء.

3- قصة "موسوم 15 أوت" [85] **Un Décoré du 15 aout** :

يستهل الكاتب نصه بقوله: انه خرج ذات مساء في الجزائر للصيد، ففاجأته في نهاية اليوم هبت عاصفة قوية بسهل الشلف، على بعد فراسخ من مدينة "أورليانفيل" *، و لم تكن هناك أية وسيلة يحتمي تحتها الكاتب ومرافقه من المطر وكان نهر الشلف قد تضخم بفعل الأمطار وبدا هديره يعلو بشكل ينذر بالخطر، غير أن مرافقه الذي كان يشتغل مترجما بالمكتب العربي لمدينة أورليانفيل تذكر لحسن حظهما أن هناك قرية تختفي وراء مرتفع وهو يعرف الآغا الذي يرأسها ويدير شؤونها فقررا أن يذهبا إليه وويترلا عليه ضيوفا في تلك الليلة، وكانت القرية تبدو حزينة وكأنها فقدت الحياة تحت وطأة قلق ممض، حتى الكلاب أضربت عن النباح فلم تنبح لمقدمها إلا قليلا. لم يكن بيت الآغا الذي كان عبارة عن بناية مستطيلة بيضاء الجدران خالية من النوافذ أكثر إيناسا من البيوت الأخرى، فقد وجد الكاتب ومرافقه الإسطبلات مفتوحة ومرابط الخيل والمعالف خالية و لم يكن هناك أي خادم يستقبل جواديهما.

85-هذه القصة أعطاها المترجم الكاتب أحمد منور عنوانا أخر وهو وسام الأغا،و قد نشرت ضمن مجموعة الكاتب حكايات الاثنين" contes du lundi

*أورليانفيل هي مدينة الشلف الحالية و كانت تسمى بعد الاستقلال بالأصنام و غير اسمها بعد الزلزال 1980 إلى الشلف نسبة إلى وادي الشلف و درء الاعتقاد الشائع بأن الله زلزل الأصنام ما دامت تحمل دلالة الوثنية.

كان مقهى سي سليمان الآغا مفتوحا وصامتا مثل إسطبلاته، وبادر المترجم بالسؤال عن سي سليمان أين هو؟ وصدرت عن القهوجي إشارة مبهمة وهو يومىء من فوق رأسه نحو الأفق، وفهم الراوي أنه قد ذهب في سفر بعيد ولأن المطر لم يكن يسمح لهما بمواصلة الطريق طلب المترجم من ابن الآغا اللجوء عنده حتى نهار الغد، وطبقا للتقاليد العربية في إكرام الضيف أشار عليهما بحركة مؤدبة نحو الديوان حيث استقرا فيه وعلى أثر ذلك أعد لهما القهوجي وأفادهما ببعض تفاصيل رحلة سيده الذي كان قد تلقى في 15 أوت برقية تنبئه بحصوله على اللجيون دونور la légion d'honneur الذي طال انتظاره لها إذ كان سي سليمان هو الآغا الوحيد الذي لم يحصل عليه لأن الآخرين كانوا جميعا حاصلين على وسام من رتبة فارس أو ضابط، وأن اسم الآغا سي سليمان ضل يرشح لأكثر من عشر سنوات. وكانت فرحة سي سليمان في ذلك اليوم عظيمة عندما تلقى من يد أحد الجنود "الصبايحة" spahis علبة الوسام المذهبة مرفوقة بشهادة الاستحقاق فقامت "بايه" أحب نسائه إلى نفسه بتعليق الصليب على برنوسه الوبري وكانت مناسبة للقبيلة تقيم فيها الولائم وتلعب الفانتازيا* ودق الطبول وعزف ناي القصب طوال الليل يرافق كل هذا رقص وابتهاج غامر وذبائح كثيرة من الغنم وكانت المناسبة أيضا سانحة لحضور بعض الشعراء الشعبيين وإلقائهم لقصائد مديح وفخر.

---

* لعبة الفانتازيا: هي لعبة إطلاق البارود من على ظهر الجياد في مجموعات وكأنها تتسابق على هدف معين ينتهي أخر المشوار فيها بإطلاق البارود جماعة ما يحقق شيئا من الانتشاء والتطهيرعند الفارس والمتفرج معا.

وفي اليوم الموالي استدعى الآغا سي سليمان أتباعه واتجه بهم نحو مدينة الجزائر لتقديم شكره وعرفانه لفرنسا فقابل "الدوق دو مالاكوف"-الذي كان حاكما عاما للجزائر- وأكد له إخلاصه لفرنسا بعبارات فخمة وبأسلوب شرقي مزخرف، بعدها صعد الآغا إلى أعالي المدينة لكي يراه الناس ومر على المجسد فأدى الصلاة ووزع الهدايا والصدقات شكرا وعرفانا واشترى لنسائه الهدايا من فساتين وعطور فكان يدفع بدون مساومة ويتحلق حوله الناس معجبين.و عندما حل المساء، كان سي سليمان يستعد للحاق بقومه حتى أقبل عليه شاوش "دار العمالة" مبهور الأنفاس يخبره بأنه مطلوب من العامل الذي يريد أن يتحدث إليه، لم يساوره أدنى قلق وهو يعبر فناء القصر الموريسكي الكبير، تقابل مع رئيس المكتب العربي الذي ابتسم له ابتسامة ماكرة فدخل مكتب العامل وقد استولى عليه الاضطراب.

استقبله الماريشال قائلا: "سي سليمان يا فتاي أنا متأسف لقد وقع خطأ... فالوسام لم يكن موجها إليك وإنما هو لقائد بني زقزوق وعليه فلا بد أن ترجع الصليب"

فاحمر وجه الآغا وكأنه اقترب من فرن حداد وارتعش جسمه وتوهجت عيناه، فنزع الصليب من فرق صدره ووضعه على الطاولة وقد انهارت الدموع من عينيه وخرج وهو لا يعرف أن شرفه قد أهين إلى الآبدين نتيجة أحبولة المكتب العربي إذ أن السبب الذي منع الآغا من الحصول على الوسام هو خلافه مع رئيس المكتب العربي.

وكان خبر تجريده من الوسام قد انتشر في المدينة لذلك كان يهود بابا عزون ينظرون إليه وهو يمر أمامهم ويضحكون، أما الموريسكيين فكانوا يغضون عنه الطرف إشفاقا عليه وكان إشفاقهم يؤلمه أكثر من ضحك اليهود.وانتابته نوبة غضب فتخيل نفسه يدعو إلى الجهاد هناك على الحدود المغربية أو يرى نفسه يهاجم شوارع مدينة الجزائر على رأس فرسانه، فينهب دكاكين اليهود، ويقتل المسيحيين، كل هذه التصورات تبدو له ممكنه إلا رجوعه إلى قبيلته وقد جرد من الوسام، وفجأة عنت له فكرة مقابلة "لامبرور" *، إنه أمير المؤمنين الحقيقي بالنسبة لمسلمي عهد الانحطاط أما لا مبرور الأخر الموجود في اسطنبول فإنه كان يبدو لهم من بعيد ككائن روحاني أو البابا المخفي الذي لم يبق لنفسه سوى السلطة الروحية. وما أن عنت له هذه الفكرة حتى اعتقد وتوهم أن مشكلته قد حلت، في ذلك اليوم ركب الآغا سي سليمان البحر متوجها إلى باريس في غاية الخشوع و الصفاء النفسي وكأنه متوجه لأداء فريضة الحج. وصل باريس وظل بها أكثر من أربعة أشهر تائها في ضباب باريس متنقلا بين الوزارات، يهزأ منه الموظفون حيث حل ويتقاذفونه من مكتب إلى أخر، ويظل يمسح ببرانسه المقاعد الخشبية لقاعات الانتظار، آملا مستعطفا بلا جدوى راغبا في الحصول على مقابلة لكنه يعود كل ليلة إلى الفندق "بخفي حنين" مرهقا لكنه فخور متعلق بالأمل مستميت في الجري وراء شرفه الضائع.

---

*لامبرور هو في اللغة الشعبية الامبراطور حاكم فرنسا .

وأثناء وجوده بفرنسا كان فرسانه يتقرفصون في حي "بابا عزون" ينتظرون عودته في قدرية مشرفة والجياد مربوطة، تصهل في الجهة المقابلة للبحر.أما في مقر القبيلة فقد كان كل شيء معلق إلى إشعار أخر حتى الحصاد علق بسبب غياب الأيدي العاملة، والنساء والأطفال وجوهم مشرئبة نحو باريس، ووراء كل الآمال وكل ذلك القلق، الله وحده يعلم متى ينتهي الانتظار ومتى يعود صاحب الدار؟ قال القهوجي وهو يتنهد ويمد إصبعه يشير لضيفيه إلى هلال صغير يطل في سماء مبتلة معتبرا ذلك فأل خير يعيد الآغا إلى أهله وبلده وقد استرد الوسام الذي حال بينه حاكم "بيرو عرب".

3- قصة طرطران دو طرسكون Tartarin De Tarascon :

في الأعمال المعروفة دوليا التي بدأ بها، اتخذ الكاتب الفرنسي دوديه من الجزائر مكانه المفضل إذ أن القصص التي اشتهر بها لدى جمهوره تجري أحداثها في الجزائر حيث أنه من خلال 07 كتب ألفها في الفترة الممتدة من 1869 إلى 1874، 04 أربعة منها تتحدث عن هذا " الشرق" التابع لفرنسا.

في 21 ديسمبر 1861 وطأت قدما ألفونس دوديه أديم الجزائر قادما إليها عبر رحلة بحرية من مرسيليا بتوجيه من طبيبه د. مارشال دو كالفي Dr Marchal de calvi الذي نصحه بالتوجه إلى أرض الجزائر لترميم رئتيه

بشمسها الجميلة، إذ كان مرض السل قد بدأ ينخرهما و لم يكن المصل الواقي من السل قد اكتشف بعد لذا عمل بالنصيحة ورافقه في هذه الرحلة أحد أبناء عمومته المسمى رينو Reynaud. وكان رينو هذا يبلغ من العمر أربعين عاما ويشتغل فلاحا في ضواحي نيم Nimes، يزرع الورود التي لم تكن لتملأ حياته لذا كان يشعر بالملل، ولملأ فراغه كان يقرأ قصص وروايات عجائبية ويمارس مهنة الصيد حتى عرف عند أبناء بلدته بالصياد cassaire/ le chasseur* ولم يكن القنص الذي يمارسه في الضواحي يلبي طموحه[86] لذا كان يرغب في الرحيل إلى إفريقيا لاصطياد الأسود وكان العرض الذي قدمه له الكاتب أو الراوي عرضا مناسبا يلبي رغباته فوافق على اصطحابه إلى أرض إفريقيا، بلاد الكواسر والأسود التي طالما حلم باصطيادها وبالمناسبة تحقيق أمنيته في رؤية الشرق الذي تخيله وكون عنه صورة راودت مخيلته.

بدآ رحلتهما بزيارة مدينة الجزائر الحديثة التي صدمتهما بطابعها الفرنسي لكنهما وجدا في المدينة العليا العربية ضالتهما بأزقتها الملتوية الضيقة الصاعدة فبدآ بزيارة المساجد والبازارات والمقاهي الشعبية وتمتعا بمشاهدة حلقة من حلقات عيساوة وبرؤية القصور العربية والمساكن القديمة ، وكان ابن عمه رينو لا يتمتع بجمال العمران فقط وإنما كان مشدودا إلى الحمامات العربية ومن تخرج منها من

---

* lou cassaire باللهجة المحلية لمنطقة طراسكون هي تحريف لكلمة le chasseur باللغة الفرنسية .

[86]- Léon dégoumois :« l'Algérie d'Alphonse Daudet » d'après tartarin de Tarascon, Ed : Sonor Genève, 1922,p.38.

العربيات معطرات مضمخات بالحناء ووسائل التجميل التقليدية وهو الذي جر الكاتب إلى إحدى الدور الخاصة التي تديرها "عالمة" وتعرض فيها رقصا شرقيا تقدمه بعض الفتيات العربيات، ثم عرجا بعد ذلك إلى ضواحي المدينة فإلى البليدة موطن الأسود كما اعتقد رينو، وفي النهاية استقرا في مليانة لكنهما اصطدما بحقيقة أن الأسود وجل الكواسر هاجرت إلى مناطق أخرى بعيدة وأنه لا يمكن لهما أن يقتلا أسدا واحدا في سهل "أورليانفيل". حمل الكاتب الراوي قبل سفره عدة رسائل توصية إلى بعض زعماء القبائل العرب الذي استقبلوه وأكرموا وفادته وعرفوه بكثير من العادات المحلية العربية الأهلية وهو الأمر الذي ساهم في شفاءه أكثر من الدواء الذي وصف له، بعدها عاد إلى فرنسا سنة 1862 والصور تتزاحم في مخيلته، وقد اكتسب تجربة جديدة يتعاوش فيها شعبان دون أن يمتزجا. وكانت الجزائر ملهمته إذ ألف من وحيها بعض القصص حتى وإن كان ظهورها متأخرا "كبغلة القاضي" la Mule du Cadi تلتها قصة "شابتان قتال الأسود" سنة 1863 "، المدينة الصغيرة"سنة 1864، "في مليانة" سنة 1869. ومن بين القصص المتعلقة بالجزائر كانت قصة "شابتان قتال الأسود" الصادرة بجريدة الفيغارو في جوان 1863 والتي تتحدث عن قروي طيب من طاراسكون نزل بأرض الجزائر على أمل اصطياد الأسود لكنه في النهاية لم يصطد إلا أسدا عجوزا مستأنسا وأعمى وكانت هذه قصة قصيرة عاد إليها الكاتب بعد 6 سنوات وحولها إلى رواية بعنوان "باربران دي طراسكون"

والتي صدرت في النهاية على حلقات في جريدة الفيغارو الفرنسية سنة 1870[87]

وقد عبر فلوبير Flaubertعن شعوره بعد قراءته للرواية بقوله [88] c'est simplement un chef d'œuvre, je l'ache le mot et je le maintient

قسم الكاتب روايته إلى ثلاث فصول بعناوين فرعية:

الفصل الأول: في طاراسكون.

الفصل الثاني: عند صيادي الأسود.

الفصل الثالث: عند الأسود.

سنقتصر على ترجمة الفصل الثالث لأن أحداثه تجري بأرض الجزائر وهي تعطي صورة عجائبية عما كان في مخيلة الكاتب أو الراوي.

تلخيص:

وكانت العربة التي تجرها الخيول من النوع القديم وكانت جنباتها مكسوة بقماش مخملي "يرضرض" ظهر المسافر بعد ساعات من الطريق، فاختبار الكاتب أحسن حيز منها وكان برفقة مسافرين آخرين؛ تجار يهود وآخرون، كان طيلة السفر صامتا يفكر وقد وضع بنادقه على ركبتيه . يفكر في سفره الذي جاء على

---

[87]- نشرها الناشرDentu بعنوان طرطران دي طراسكون لتفادي شكوى عائلة برباران التي كانت موجودة فعلا وتعيش في الضواحي .

[88]- مقولة موضوعة على غلاف الطبعة الخاصة بالرواية التي أعدتهاGarnier Flammarion سنة 1968.

عجل، في عيون" باية" الموريسكية التي تعرف عليها وأقام في مترلها مدة، وفي عملية

الصيد العجيبة التي ينوي القيام بها وهو في الطريق إليها، وفي هذه العربة الأوروبية

التي وجدها في قلب إفريقيا والتي تذكره بشبابه في طاراسكون إذ كان يركب

مثيلتها لزيارة الضواحي لحضور بعض حفلات العشاء على ضفاف نهر "الرون"

...مجموعة ذكريات.

بدأ الليل يرخي سدوله على المنطقة، أشعل السائق مصابيح العربة التي كان يسمع

لبعض أجزاءها صرير نتيجة الصدأ، يقضي برهة في مشاهدة الركاب وأجسامهم

تهتز، تصاب عيناه بغشاوة فأصابه الذهول وإذا به يسمع صوتا يناديه من بعيد:

- السيد طرطران، السيد طرطران.

- من ينادي

- أنا ..السيد طرطران - ألم تعرفني- أنا العربة القديمة التي كانت تقوم بنقل المسافرين على الطريق طرطران —نيم كم مرة حملتك- أنت وأصدقائك في رحلات صيد.

- طيب..طيب أجاب الراوي بشيء من الاندهاش وأردف قائلا.

- وفي الأخير يا عزيزتي، ما جاء بك إلى هنا، ماذا تفعلين.

– أه، السيد طرطران .. لم آت بمحض إرادتي، أطمأنك، عندما تم وضع طريق السكة الحديدية الموصل إلى بوكير Beaucaire وجدوني لا أصلح لشيء فأرسلوني إلى إفريقيا، لست الوحيدة، فمعظم العربات حولت إلى إفريقيا بعد إتمام خطوط السكة الحديدية وأنه في فرنسا أطلق علينا اسم خطوط السكة الحديدية الجزائرية.

–آه السيد طرطران إني أحن إلى ذلك العهد الجميل –عهد الشباب –كنت أغسل كل صباح بالماء الوفير حتى تلمع عجلاتي ومصابيحي التي كانت مثل الشمس، وصوت الكرباح الذي يجعل الخيول تهرول..آه كم كان يلمع ذلك الطريق العريض بجنباته المرصعة وسط حقول الزيتون والكروم وكذلك الفنادق الريفية كانت التي كانت كل بضع خطوات، والاستراحات، والمسافرون، طيبون هم، رؤساء بلديات ورهبان الذين يذهبون إلى نيم ويعودون لاستشارة عامل العمالة أو القساوسة، تلاميذ في عطلة، مزارعون في ملابسهم المزركشة كل هؤلاء.

–أما الآن حكاية أخرى إن الله يعرف الناس الذين أكرههم؛ مجموعة كفار وملاحدة أتوا من كل فج عميق، زنوج و بدو و مغامرون، مغامرون بثياب متسخة يزعجونني بغلايينهم، يتكلمون كلهم لغة لا يفهمها الرب نفسه، لم يتوقف السائق في استراحة معينة ومحددة، كان يتوقف على مزاجه مرة في مزرعة ومرات أخرى في أي مكان يشاء وكيفما شاء حتى وصلت الرحلة إلى البليدة ونادى السائق معلنا نهايتها فاتحا الباب للنزول.

ترجل طرطران وخطا خطوات فوجد نفسه في ساحة جميلة محاطة بأعمدة وأقواس

وأشجار الحوامض-هذا جميل- ولكن ليس بها رائحة الأسود، تساءل طرطران .

-في الجنوب ردد طرطران الذي كان يحمل كل معداته وأسلحته والتي شدت انتباه

أحد المسافرين الذي كان يحملق، فيه فانتبه طرطران إلى ذلك وسأله هل هذا

يدهشك فأجاب الرجل هذا يزعجني فرد طرطران: هل تتخيل بأنني ذاهب إلى صيد

الأسود؟

-نظر إليه الرجل نظرة تساؤل وقال له : طبعا هل أنت؟

– طرطران دي طراسكون صياد الأسود.

– هل قتلت أسودا فيما سبق السيد طرطران.

– نعم إذا كنت قد قتلت أسودا أكثر، أتمنى أن تقتل أنت هذا العدد من الخيول

فقط.

– وهل قتلتم النمور.

– نعم في لحظات الفراغ ورفع رأسه في شموخ وكبرياء.

وفي اليوم التالي وفي ساعات الفجر الأولى انطلقت القافلة: طرطران ورفيقه وحوالي

ستة زنوج من مليانة في اتجاه سهل الشلف في جو يعبق بأريج الزهور والياسمين

وأشجار الخروب والزيتون، وطرطران ومرافقه يتحدثان ويتفلسفان والعبيد حفاة

يقفزون من صخرة إلى أخرى مطلقين أصواتا شبيهة بأصوات القردة، لكن المؤسف أنه في نهاية النهار، أصيب أحد العبيد الذين كانوا يحملون أمتعة طرطران بآلام في بطنه والثاني أصيب بدوار شديد وفر ثالثهم هاربا بكل ألبوم صور الرحلة التي كانت في بدايتها معتقدا أنه ظفر بكنز ثمين، توقفت القافلة في ظل شجرة تين عتيقة، وفكر طرطران ومرافقه في أن يعرجا على سوق عربي كان قريبا من ذاك المكان لشراء مجموعة من الحمير يحملان عليها أمتعتهما. تراجع طرطران عن هذه الفكرة محبذا اشتراء جمل حتى يكون للقافلة طابع شرقي. كان السوق يجتمع حول أحد ضفاف نهر الشلف وبه آلاف العرب يرتدون الأسمال يتحركون وسط جرار مملوءة بالزيتون والعسل وأكياس التوابل ويتحلقون حول نيران يشوون عليها خرافا كاملة يدلقون عليها السمن البلدي، وفي زاوية من السوق يجلس كاتب ضبط عربي يضع أمامه سجلا ونظارات طبية. مزيج من الأصوات توحي بجنون أصحابها ومشهد مضحك هناك حيث يغرق تاجر يهودي بمعية بغلته في نهر الشلف والكل يتفرج، عقارب وغربان والذباب الكثير، لم يكن في السوق جمال هذا ما لاحظه طرطران ومرافقه وفي النهاية وجدا جملا واحدا فقط لصاحبه المزابي الذي كان يريد أن يتخلص منه بأي ثمن. نخ الجمل فحزم كل حقائبه وصعد هو ومرافقه فقام الجمل وانطلق بهما وما هي إلا خطوات حتى أحس طرطران بخوف شديد وحاول أن يترل

فلم يفلح فتشبث بسنام الجمل الذي هرول لأن العرب كانوا وراءه يجرون ويضحكون من هذا المنظر غير المألوف.

دامت الرحلة الاستكشافية حوالي شهر في البحث عن الأسود المفقودة، جال فيها طرطران سهل الشلف دوارا بعد آخر فلم يجد ضالته في الجزائر الفرنسية التي تمتزج فيها روائح الشرق القديم بعبق الورود وصور الثكنات.

عجيب ذاك المنظر أمام أعين ترى شعبا متوحشا تحاول فرنسا أن تحضره بقيم في حقيقتها أمراض اجتماعية، كل ذلك بسلطة الباشاوات القاهرة غير المقيدة الذين يضربون بالهراوات يقمعون كل من يناوئهم بالفلقة، كل ذلك على مرأى ومسمع من عدالة القضاة الأهليين حراس الشريعة والدين الذين يحلمون بالحصول على نياشين الدولة الفرنسة فيصدرون أحكاما على المقياس لفائدة قياد متحررين و"خمارجية"، وحول كل هذا سهول في طور الاستصلاح قد حرقت أعشابها وأشجارها و لم يبق فيها إلا الأشواك وبقايا رماد. مخزن فرنسا؛مخزن فارغ من الحبوب للأسف لكنه غني بالذئاب وبنات آوى والبرغوث. دواوير مهجورة وقبائل مذعورة تفر إلى وجهات غير معروفة لديها، جائعة، حافية ، عارية وقد فقدت الكثير من أفرادها على طول الطريق.

وفي مليانة نزل طرطران من العربة التي واصلت طريقها نحو الجنوب بعد أن قضى يومين كاملين لم يغمض فيهما عينيه آملا في رؤية أسد من الأسود التي جاء خصيصا لاصطيادها، توجه عبر شوارع المدينة الواسعة المليئة بالأشجار والحنفيات باحثا عن فندق يأوي إليه وفجأة وفي منعرج طريق وجد نفسه وجها لوجه أمام أسد جميل كان ينتظر أمام باب مقهى وقد جلس القرفصاء، قفز طرطران إلى الوراء مستعدا لكل هجوم لكن الأسد لم يتحرك إطلاقا حتى مر عربي ورمى له قطعة نقود في العلبة التي كان يضعها أمامه، فحرك الأسد ذيله شاكرا لهذا الصنيع، ففهم طرطران كل القصة عندما رأى أناسا يتجمهرون حول هذا الأسد الأعمى الذي يستعمله زنجيان ضخمان وسيلة للاسترزاق.دار الدم في رأسه وصاح فيهما أيها الشقيان ارجعا هذا الحيوان لكنه واجه مقاومة من طرفهما إذ رفعا العصا في وجهه وطرحاه أرضا وانهالا عليه ضربا ، وسط ضحك الصبيان واستغراب الحاضرين.

وفي هذه اللحظات شق أحدهم التجمع وأبعد الزنجيين والنساء وكل الحاضرين بصيحة واحدة. ساعد طرطران على الوقوف ثم أجلسه وربت على رأسه ثم سأله عن سبب وجوده في هذا الموقف وهذا المكان، فأجاب طرطران بأنه لم يتحمل إهانة هذا الأسد من طرف الحضور فأجابه الرجل بأن هذا الأسد هو محل تقدير وتقديس وقد جلب من دير خاص بالأسود أنشأه الولي الصالح محمد بن عودة منذ ثلاثة قرون ويقيم فيه رهبان يخدمون بعض هذه الضواري.

وفي اليوم الموالي للحادثة المأساوية التي تعرض لها وبينما كان جالسا في أطراف المدينة يمرر شريط الذكريات وكيف أنه سيعود يخفي حنين إلى طراسكون بلدته، ماذا سيقول عنه سكانها، ماذا سيقول عنه صيادوها وهو الذي خرج منها منتفخا مزهوا رافعا رأسه إلى السماء متظاهرا بالشجاعة، بينما هو في هذه الحالة "حالة التذكر" واضعا بندقيته على ركبتيه وفجأة يسمع حفيف أوراق الشجر وكم كانت المفاجأة إذ رأى أسدا ضخما يتقدم فصوب نحوه وأصابه برصاصتين أجهزتا عليه ويا للهول لقد خرج عليه ثانية الزنجيان اللذان أجهزا عليه ضربا بالعصي في اليوم السابق وهما يرفعان عصيهما من جديد يريدان قتله أو الانتقام منه، فأدرك أن الأسد المقتول ما هو إلا الأسد الأعمى الذي رآه أمس وأنه لا محالة هالك لولا العناية الالاهية التي بعثت له من السماء رئيس الحرس البلدي لبلدية أورليانفيل الذي ما أن شاهده الزنجيان حتى هدآ، إذ وعدهما بإحالته على القضاء وحرر لذلك محضرا وطلب من طرطران والزنجيين مرافقته إلى المحكمة وكانت الإجراءات القضائية صعبة ومعقدة وطويلة باع من أجلها كل بنادقه ومعداته وحتى بعض الأدوية التي كانت بحوزته لكي يدفع ثمن الأسد بألفي فرنك فرنسي، لم يبق لديه شيء عدا جلد الأسد الذي طواه ورتبه وبعثه رأسا إلى طراسكون في انتظار الرحلة البحرية القادمة.

في المينا ء في منتصف النهار كانت الباخرة تستعد للإقلاع، سار طرطران نحو سلم الصعود وإذا بالجمل يلتحق به يحاول الصعود أيضا فرمى بنفسه في البحر سابحا

الى أن تمكن من ركوب السفينة وكانت دهشة طرطران كبيرة وكذلك كل المسافرين الذين اندهشوا لهذا الحيوان العجيب الذي يريد أن يكون وفيا لصاحبه في وقت انعدم فيه الوفاء عند بني البشر، لم تكن لطرطران حقائب ولا أمتعة،دامت الرحلة يومين كاملين،وصل مرسيليا ومنها بواسطة القطار إلى طراسكون التي كان ينوي دخولها متنكرا في صمت مخافة شماتة الأعداء والأصدقاء. توقف القطار بمحطة البلدة ترجل طرطران فوجد أن المدينة كلها خرجت لاستقباله بطلا اصطاد أسود إفريقيا وقد كان لجلد الأسد الذي أرسله قيل العودة أثر السحر وسببا في انتشار أقاصيص وحكايات نماها البطل بعد وصوله كان يستهلها دائما باللازمة "تصوروا ذات مساء وفي قلب الصحراء...."

تحليل القصة:

في أعماله الأدبية الأولى والتي عرفت على المستوى العالمي، اتخذ ألفونس دوديه للجزائر مكانة متميزة، ففي سبعة أعماله الأولى التي نشرت ما بين 1869 و 1874، أربعة منها مخصصة للجزائر التي كان المخيال الجماعي يعتبرها شرقا.

اتخذ هذا الشرق الفرنسي حيزا كبيرا منها:

- رسائل طاحونتي 1869.
- طرطران دي طراسكون 1872.

- أحاديث الاثنين 1873.

ففي سن الواحد والعشرين زار ألفونس دوديه إفريقيا ومكث بها مدة ليس للاستفادة من مناخها الجاف لمعالجة رئتيه كما نصحه طبيبه فحسب بل للإطلاع على الأحوال المعيشية للأهالي ودراسة عاداتهم كذلك التمتع بالمناظر الطبيعية الخلابة التي تشكل إطارا للعجائبي والغرائبي الذي توقعه ورسمه في مخيلته من خلال ما قرأه عن الشرق وسحره إذ لا بد من الإشارة إلى ضرورة التفرقة بين الجزائر التي كانت إطارا لمغامرات طرطران ذي طراسكون وجزائر ثانية أخرى ذكرها المؤلف في كتبه على شكل ذكريات وأحداث متفرقة. فالجزائر التي صورها في مغامرات طرطران دي طراسكون هذه الرواية التي تنتمي إلى الرواية الفكاهية وهي أقرب منها إلى نوع أدبي آخر في إطار الرحلة الإفريقية التي قام بها الكاتب والتي عاش أحداثها وأجرى بعضها على لسان بطله طرطران، أما الجزائر الأخرى غير التي صورها وذكرها في كتبه الثلاثة الأخرى فهي مغايرة إذ يكون من السهل وضع الحدود الدقيقة بينما هو موجود ومصور في رواية طرطران دي طراسكون، فمسار صياد الأسود في هذا العمل الأدبي لا يبدوا متشعبا ولا متنوعا إذ تتلخص أحداثها في وقفة أو استراحة في عاصمة الجزائر دامت حوالي ثلاثة أشهر تعرف فيها على باية الموريسكية واتخذ من مسكنها موطنا ومرصدا يتعرف فيه على عادات الجزائريين وأخلاقهم، فمسكنها كان ملتقى لشخصيات من مشارب مختلفة وثقافات مختلفة أيضا بل ولغات مميزة

على بعضها البعض، إذ كانت باية تستقبل الأوروبيين-التجار والضباط والسواح والكتاب-فتعلمت لغاتهم وتطبعت بطبائعهم فكثيرا ما كانت تؤنسهم وتطربهم وتغني لهم أحيانا بعض الأشعار وأغاني البلدان البعيدة لإسعادهم تارة وللتواصل معهم وبعث الطمأنينة فيهم تارة أخرى، و بعد وقفة الجزائر العاصمة خرج إلى الضواحي فزار مليانة وسهل الشلف في رحلة استكشاف وصيد استغرقت ما يقارب الثلاثة أشهر أيضا سجل فيها ذكرياته وبعض مغامراته دون أن يركز على الأماكن ولا على ملامح من قابلهم أو رافقهم في رحلته، فلا يوجد في الرواية أو القصة ديكورات خاصة بالجانب العجائبي يمكن أن تدرس منفصلة عن البقية فلقد خصص في بداية القصة بعض الجمل لتصوير الجزائر تصويرا فيزيائيا عاكسا حقيقة الجغرافيا الموجودة دون أن يلجأ إلى تصويرها في لوحات فنية تعكس إنبهاره بالشرق المتخيل كما فعل الرومانسيون الآخرون. لقد قدم لنا صورة مدينة الجزائر في بانوراما لم تتعد عشرة أسطر و على ما يذهب الباحث Léon Dégoumois "فإن مدينة الجزائر الحديثة لم تثر اهتمامه أصلا فقد ذكرها عرضا ببعض الجمل وكذلك كان الحال بالنسبة للجزائر التركية مدينة مصطفى باشا فقد خصص لها أقل من صفحة بجمل مقتضبة وتكون هذه هي حصيلة اللوحات المخصصة للعاصمة"[89]

[89]- Léon dégoumois :Op Cit , p 20 .

وعلى العكس فان الصور واللوحات العاكسة للعادات والتقاليد، كانت كثيرة وموزعة على صفحات كتاباته وكانت في نفس الوقت مفصلة وانعكاسا فعليا للواقع ولرغبة الكاتب في تصوير الأهالي، في تصوير ملابسهم وملامحهم وطرق تفكيرهم ومواجهتهم للواقع ومشاكله اليومية [90]. فبمجرد وصوله إلى ميناء الجزائر شاهد صياد الأسود معرضا ايتنوغرافيا فظهور السود على ظهر السفينة التي وصلت إلى ميناء الجزائر بعث فيه الدهشة التي ساهمت في بعث العجائبي أمام عينيه وجعلته يحقق حلمه في زيارة الشرق والتمتع بنسائمه وألوانه وعاداته الأصيلة المبعوثة منذ عصور سحيقة زادها براعة الكاتب في وصفها وتلوينها بألوان محلية تبعث القارئ الفرنسي والأوروبي خاصة على تذوقها ونسج أحلام غاية في الطرافة، فلقد اتخذ طرطران إحدى الفيلات في المدينة العربية مقرا له أثثت ووضبت على الطريقة العربية المشرقية تبعث في ساكنها خمولا وحلما جميلا تزينه السهرات الليلية التي تجري على سطحها الذي يطل على أسطح مساكنها.

إن المغامرة الاستكشافية لطرطران في الجنوب الجزائري والتي هي عنوان القسم الأخير من الرواية لم تلون بنفس الألوان التي اصطبغت بها المناطق الأخرى، فهذا الجزء الأخير الذي كان مسرحه سهل الشلف كانت حصيلته هي قتل أسد مروض عجوز وأعمى كان أصحابه يستغلونه وسيلة للاستجداء، فقد اختزل الكاتب

[90]- المرجع السابق ص 21 .

وصف البلاد إلى أدنى ما يمكن له، وأخذت العادات والتقاليد الحيز الأكبر وكان

تناولها في مجمله محاكمة ظالمة للحضارة الجزائرية إذ عمد إلى إظهار وإبراز عادات

وتقاليد سيئة مثل الرشوة والفساد اللذان كانا ينخران جسم الجزائر الفرنسية وقتها

مدينا بذلك المسئولين العرب واصفا إياهم بالبربرية والنفاق لينتهي بنتيجة أن

الحضارة الجزائرية هي خلطة غير موفقة بين الشرق والغرب لينهي رحلة بطله في

إفريقيا بفشل ذريع عبر عنه البطل نفسه بقوله Il n'a plus de teurs[91] قبل أن

يغادر المدينة أو كما عبر عنها بالمنطقة العربية المصنوعة بالكرتون الملون، أو بهذا

الشرق البائس.

في سنة 1883 عنت للكاتب فكرة البوح بأسباب ودوافع الرحلة والأحداث

التي رافقت تأليف كتبه المختلفة خاصة الأربعة منها التي اتخذت الجزائر مادة

ومسرحا لها، إذ يمر الكاتب إلى الاعتراف بأن طرطران الحقيقي وجد لكنه ليس من

طراكسون وأن الكاتب رافقه وعرفه عن قرب لذا خلده أدبا ويذكر أنه كان يسمى

شاباتان في أول وهلة وبربران في مرحلة ثانية.

أما في سنة 1872 فانه أصبح طرطران عندما صدرت الرواية وهذا تفاديا

لكل إحراج أو تفاديا لتراع قضائي مع عائلة تحمل نفس اللقب بربران كانت تعيش

في المدينة نفسها .

[91]-المرجع السابق ص 25 .

4- مصادر ألفونس دوديه:

يذهب بعض النقاد وعلى رأسهم الباحث المختص في أدب دوديه ليون دي قوموا Léon Dégoumois إلى أن دوديه تأثر أيما تأثر بالكتابات السابقة عن الجزائر خاصة ما كتبه Eugene Fromentin في روايته "سنة في الساحل" و"صيف في الصحراء" وما كتبه أيضا Ernest Feydeau "الجزائر" بالإضافة إلى ما كتبه jules Gérard عن رحلات الصيد .

إن ما كتب عن الجزائر من أدب من طرف الكتاب الرحالة يشكل كما هائلا وجد ألفونس دوديه صعوبة في اختيار العينات التي يريد النسج على منوالها إذ يصرح في مذكراته أن مصادره تتكون من كل هذا و من أشياء أخرى [92] إذ وجد نفسه أمام مكتبة ضخمة مكونة من كتب تتناول الجزائر نهل منها خاصة من كتب الضباط الفرنسيين الذين صنعوا التاريخ قبل أن يدونوه بالإضافة إلى الدراسات الجغرافية والأتنوغرافيا التي قاموا بها، وكتب الرحلات، وألبومات صور تبعث في القارئ الرغبة والفضول لزيارة البلد الجديد الذي لا زال في حيويته البدائية.

---

[92]- Alphonse Daudet Notes, P : 219.

وأهم الكتابات في هذا الشأن ما كتبه الجنرال دوما General [93] Daumas "عادات وتقاليد الجزائر" mœurs et coutumes de l’Algérie سنة 1858، و"الصحراء الكبرى" le grand désert سنة 1857، و"الحياة العربية والمجتمع المسلم" La vie arabe et la société musulmane سنة 1869و"خيول الشمس" les chevaux du Soleil الذي حول إلى مسلسل تلفزيوني فرنسي لعب بطولته أحد الجزائريين، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الجنرال دوما كان قنصل فرنسا لدى الأمير عبد القادر وكان وقتها برتبة نقيب وقد جمعت رسائله التي كان يبعثها إلى دولته وهو قنصل في كتاب مهم يعكس عبقرية كاتبها ويعطي صورة واضحة عن علاقات الأمير بالدولة الغازية وما شابها من توترات، والدور الذي لعبه ليون روش Léon Roch الجاسوس الفرنسي الذي تسلل الى الدائرة الضيقة للأمير عبد القادر فأصبح مستشاره الأول، وبعد أن أتم مهمته اعترف للأمير بذلك واختفى، فعينته فرنسا قنصلا عاما لها في طنجة المغربية، وهو صاحب الفتوى الشهيرة التي تفيد بأن المسلم إذا غلب على أمره يجوز له أن يرضى بحكم من غلبه، وهي فتوى زعم أنه استصدرها من جامع الزيتونة وصادق عليها في الأزهر، واتضح فيما بعد أنها مزورة .

---

[93] - General Daumas: ضابط سامي ألف رواية عن عجز الجزائر بعنوان les chevaux du Soleil حولته السينما الفرنسية إلى مسلسل عظيم.

وباعتماده على أوجين فرومنتان وجد ألفونس دوديه كاتبا ملهما محيطا بهذه المجتمعات عارفا بأسرارها وتقاليدها وعاداتها ومعتقداتها الشعبية لأنه كان فرومنتان كان فنانا له لوحات كثيرة تحفظ اسمه وذكراه لازالت موجودة في متحف اللوفر بباريس، وباعتماد دوديه على الصور والأفكار التي وضعها فرومنتان في كتابه "سنة في الساحل" استلهم المناظر العجائبية وبعض الصور والعادات والتقاليد التي وضعها إطار خلفيا لرحلة بطله طرطران، و لم يكن المؤلف في حاجة إلى أكثر مما ألفه فرومنتان لوضع ديكورات مؤلفه ووضع الإطار العام لقصته موضوع الدرس لكن السؤال المطروح:

-لماذا اعتمد دوديه على كتابات فرومنتان و كتابات آخرين مثل أرنست فيودو وجول جيرار ولكنه لم يشر إلى هذا التناص؟ هل هذا راجع إلى ثقة دوديه بنفسه من أن قراءه لا يرجعون إلى الأصول التي استوحى منها كتاباته أم يرجع إلى ثقته بأن نصف قرن من الاحتلال لم ينتج أدبا غزيرا وكتابات مهمة عن المستعمرة الجديدة ؟ وهذا التساؤل هو ما طرحه الناقد ليون دي قوموا [94] في دراسته القيمة المشار إليها آنفا، إذ رأى أن دوديه قام بعملية اقتباس من أعمال فرومنتان خاصة ويعيب عليه قائلا:كيف لكاتب بحجم دوديه أن يلجأ إلى عملية سرقة مفضوحة دون أن يعطي لما يدعيه من تأليف طابعا مميزا خاصا به.

---

[94]- Léon Dégoumois المرجع السابق ص 48.

إن قدرته في تحقيق الأسلوب وإضفاء طابع الارتجال على عملية القص كسي النص الأدبي بحيوية جديدة وأعطى طابعا سلسا للجمل النصية الأكاديمي ة لفرومنتان وخاصة فايدو مما شكل إدماجا ذكيا ولون النصوص الأصلية بألوان جديدة أعطت طابعا مميزا للوحات التي أراد رسمها للجزائر.

إن التماثلات العامة الظاهرة في نص دوديه موضوع الدراسة تبين بوضوح أن الكاتب وضع لنفسه مخططا عاما ظل أسيرا له بحيث لم يتمكن من الخروج عن بنية السرد التي طرحها فرومنتان وفايدو وهي نتيجة منطقية لمنهج اتبعه الكاتب الذي زار هو الأخر الجزائر واقتنع أن المسارات التي اتبعها طرطران فيما يخص الجولات في المدن والضواحي أو رحلات الصيد في الأقاليم تتشابه أو تكاد تتطابق مع مثيلاتها في نص فرومنتان وفايدو إذ لم يذكر اسما لمكان أو حي أو شارع أو بناية أو نهر أو مجرى أو جبل غير ما ذكره قبله فرومنتان وفايدو،و لتنقله اتخذ لبطله صائد الأسود وسيلة نقل مماثلة لما اتخذه فرومنتان.

وفي تنقلاته صادف أجناسا من أثنيات مختلفة لا تختلف عما ذكره من سبقاه. إن المصادفات العجيبة والتوافق الغريب تؤكد للقارئ أن دوديه اتخذ من فرومنتان وفايدو مرشدين له في رحلته الإفريقية.

ففي تصويره لمدينة الجزائر بدأ بإعطاء صورة بانورامية لها خصص لها ثلاث جمل لا تختلف عن الصورة التي رسمها فرومنتان وفايدو فيكون ناقلا حرفيا لصورة سبقه إليها الكاتبان المذكوران لأنه بمقارنة النصوص يتضح أن الكاتب لم يبذل جهدا مميزا يجنبه الوقوع في التقليد أو بالأحرى السطو على إنتاج غيره ويبدو ذلك ظاهرا من خلال المقارنات التي يمكن أن يجريها القارئ بين مختلف الألوان المرسومة خاصة اللوحة عند وصول الباخرة "الزواف" zouave إلى مرفأ مدينة الجزائر،

فالكاتب يصف الزنوج الذين صعدوا إلى المركب بطريقة توحي بأنه تأثر بما قرأ ويمكن تتبع هذه الصورة فيما كتبه دولاكروا Delacroix عن حادثة وقعت سنة 1832 عندما وصل هو الأخر إلى ميناء طنجة[95]. ففي سنة 1832 عين دولاكروا في عداد البعثة الدبلوماسية التي أرسلها ملك فرنسا لويس فيليب لإحياء العلاقات الدبلوماسية مع سلطان المغرب وإقناعه بعدم دعم المقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر واتخاذ موقف الحياد من غزو الجيوش الفرنسية للجزائر، فبمقارنة هذه الصورة بتلك نجد تماثلا كبيرا يوحي بأن دوديه كان قد اطلع على رسائل Delacroix وأنه تمثلها أثناء كتابته لروايته طرطران دي طراكسون، وللإشارة فان دولاكروا صور هذه الرحلة في لوحات زيتية قيمة لازالت محفوظة في متحف اللوفر الفرنسي الشهير.

---

[95]- انظر رحلة المغرب و الجزائر لـ Delacroix .

إن رحلة دوديه الإفريقية لم تصل إلى أعماق الصحراء كما أوهم القارئ فهو لم يزر إلا مدينة الجزائر التي وصلها مبحرا انطلاقا من مرسيليا على متن الباخرة الزواف Zouave زار بعدها البليدة فمدينة مليانة التي مكث بها ردها من الزمن وكتب من وحيها قصته الواردة في مجموعة رسائل طاحونتي lettres de mon moulin بعدها وصل إلى حدود مدينة الشلف فزار سهلها باحثا صيادا يريد أن يبني لنفسه مجدا، كل هذا صوره على لسان بطله طرطران دي طراكسون الذي لم يتمكن من اصطياد الأسود وكان نصيبه أسدا أعمى مستأنسا يستعمله أصحابه في طلب الصدقات تحت ظل وبركة الولي الصالح سيدي امحمد بن عودة.

وفي نهاية القصة ينهي رحلة بطله في طراكسون مدينته الأصلية، قاصا رحلات صيد عجيبة في إفريقيا بلد العجائبي والغرائبي على جمهور شكل صورا عنها من خلال ما سمع وما قرأ من نصوص أدبية تصور شعوبا بعاداتها وتقاليدها المختلفة، ارتكز دوما على معارفه وتصوراته هو نفسه عن ذلك، إذ اعتبر الأوروبيون إفريقيا جزءا من الشرق وهو في ذلك الوقت كان الحلم والمطلب وشكل في المخيال الجمعي أرض الميعاد الخالية من نزاعات وهزات أوروبا في القرن 19م وشكل أيضا عالما للأحلام الذي يندغم مع عالم الواقع، عالم الألوان و الأزياء، عالم له سمات جمالية لم تعرف الأزمنة القديمة جمالا أفضل منه.

الفصل الثاني

صورة الجزائر في أدب غي دو موبسان

غي دو موبسان Guy De Maupassant :

1- حياته :

غي دو موبسان روائي وكاتب قصة ولد سنة 1850 وتوفي في 1893 بعدما أصيب بالجنون المتقطع، زار الجزائر ثلاث مرات:

- الأولى سنة 1881م بصفة صحافي مراسل لجريدة "لوقلوا" le Gaulois لتغطية أخبار ثورة بوعمامة التي جرت في الجنوب الوهراني كما كان يسمى أنداك، وقد أتيحت له زيارة مناطق عديدة إلى أن وصل إلى مدينة Geryville -البيض حاليا- ومدينة عين الصفراء وكولومب بشار وهو المثلث الجغرافي الذي جرت به تلك الحرب قبل أن تنتقل إلى الحدود ثم إلى المغرب فيما بعد حيث انتقل زعيمها إذ مات ودفن بالمغرب سنة 1904 ولازال قبره مزارا يتردد عليه الزوار والمريدين للزاوية الشيخية القادرية.

- أما رحلته الثانية إلى الجزائر فقد كانت زيارة خاصة على حسابه وكانت سنة 1887 واستمرت 3 أشهر من 4 أكتوبر إلى 6 يناير 1888 زار فيها مناطق أولاد نايل وبجاية وقسنطينة قاصدا مدينة القيروان بتونس، كتب مذكرات سفر نشرها في الجرائد والصحف وجمعها ضمن كتابيه" في الشمس" و"حياة التيه".

- أما الرحلة الثالثة فكانت في شهر سبتمبر 1890 بنصيحة من طبيبه فكانت إذن رحلة استشفائية في المقام الأول لأن صحته تدهورت بفعل مرض الزهري الذي أصابه نتيجة تردده على دور البغاء التي لم تكن مراقبة آنذاك، و لم تكن تحت وصاية طبية صارمة، كما أن الدواء الشافي منه لم يكن موجودا آنذاك شأنه شأن مرض السل الذي أصاب ألفونس دوديه الذي لم يكن يعرف له مصل ولا دواء وقتها، والملاحظ أنه نفس الداء الذي أصاب ألبير كامو و لم يشف منه حتى مات في حادث السيارة المشؤوم .

فوجهة غي دي موبسان كانت البحث عن دفء الشمس ولكن أيضا كما يصرح هو نفسه في كتابه Au Soleil بحثا عن الروح العربية من خلال هوايته لعلم النفس والتصوف الإسلامي. خلال هذه الرحلة كان مهتما بالتصوف الإسلامي ويبحث عن دفء الصحراء وعن فيافيها الشاسعة تحت وطأة الشمس، وكان حلمه أن تغشاه الحرارة، وأن يبلغ هذه الغاية إلى أقصى مداها وبتعبير أخر كان يريد من حرارة الجزائر وشمسها الولوج والتغلغل داخل كيانه حتى تخرج منه رطوبة الشمال وتقضي على آخر جرثومة سببت له مرض السفلس الذي كان يصيبه بنوبات من الهلوسة القريبة من الجنون.

" نحلم دائما ببلد مفضل...بالنسبة لي أنا كنت مشدودا إلى إفريقيا لحاجة ملحة، بالحنين إلى الصحراء المجهولة، وكان هذا إحساسي لرغبة بدأت تنشأ في كياني" [96].

ففي روايته في الشمس Au Soleil يظهر Maupassant مسحورا مذهولا بحرارة ونور الصحراء إذ يقول عن هذا الموقف "غادرت باريس يوم 06 يوليو 1881 كنت أرغب في رؤية الشمس والرمل في عز الصيف تحت وطأة الحر، وفي ألق النور الخاطف للأبصار [97]. ويصرح أيضا أن رحلته كانت بهدف البحث عن الروح العربية، وتلكم شهادة هاو حقيقي مشغل بعلم النفس والتصوف الإسلامي، إن وصفه لهذا الاتجاه الذي سار فيه يحمل في ذاته الجمال والقسوة معا، قسوة طبيعة الصحراء وجمالها وفي هذا الصدد رأت دونيس براهيمي Denise Brahimi الجواب الدقيق عن أسلوب لهذا الوافد الجديد المغرم بالإسلام وحياة المسلمين في بساطتها وروحانيتها"الشمس مدمر شرس يأكل لحم العقيق وريح الشلوق لها صهد ثقيل، ملتهم مجهز، دمار الشمس أشبه بالطيور الجوارح أكلة الجيف، بحيث أنهما يصبحان متلازمين ليشكلا الصورة الأسطورية للسائد الوحيد على هذا البلد [98]

---

[96] -Jean Déjeux :Op Cit, p 14.
[97]-GUY De Maupassant : « Au Soleil », Ed. le Sycomore, paris, 1982, p. 135
[98] Denise brahimi : « Maupassant au Maghreb, au soleil ,la vie errante »,P14.

تغرف هذه الأحكام عن الصحراء من صور تعود إلى الأسطورة التي تعود بدورها إلى العهود القديمة، لأن غي دي موبسان هو الآخر ينهل من التراث اليهودي المسيحي، إذ أن لرمال الصحراء تاريخا يعود إلى الزمن الأول؛ إلى العهد القديم فقصص الكتاب المقدس المتعلقة بالأسفار الخمسة (التكوين —الخروج —الأحبار — والعهد والتثنية) التي تغذيها تقاليد الشفوية العبرية السابقة للخروج l'Exode التي تعود إلى عهد الملك سليمان (Salomon 970 - 930 ق م) .

وأدى تراكم هذه التقاليد الشفوية إلى تشكيل عقيدة الشعب اليهودي ويسميها أحبارهم الذين كتبوها "التوراة Torah ويسميها المسيحيون بالعهد القديم l'Ancien Testament، ومن هذه القصص يستلهم الأدب الغربي أهم التعاريف الكتابية المتعلقة بالصحراء، إذ لا يخلو تاريخ الأديان من الأمثلة عن اللجوء إلى الصحراء والاعتزال فيها، فالكتاب المقدس يحمل صورا شتى وحالات دالة تنوه بالتجربة في الصحراء والفيافي وهذا ما تجسده خطبة يوحنا المعمدان Jean Baptiste للمسيحيين، وكذلك انعزال مريم البتول في وحدة بالصحراء إذ انتبذت لنفسها مكانا شرقيا، والتجربة نفسها حصلت عند العرب المسلمين في هجرتهم من مكة إلى المدينة وقبلها إلى الحبشة، مروا وعاشو ا تجربة السير في الفيافي والدروب المقفرة

الموحشة، فالصحراء في الكتاب المقدس هي فضاء مجرد لا يوجد إلا بوصفه واسطة بين الرب والعباد كما يذهب إلى ذلك M. Roux[99] .

تصور المخيال العبري الصحراء تصورا ذهنيا جماعيا أول الأمر ثم انزاح هذا التصور إلى المستوى الفردي فيما بعد مع كتاب النصوص المقدسة لتزدحم فيه أطياف وخيالات تعهدته ا الذاكرة الجماعية للعبرانيين الذين أطلقوا العنان لمخيلتهم، وبدل أن يكون الكتاب المقدس يصور عمق وحقيقة الأحداث التي عاشها شعبهم. كان مرآة لحقيقة الحقد العبري على أهل الشرق، و ظل أحبارهم طيلة قرون من الزمن يتعهدون أسطورية الكتاب المقدس بإسقاطاتهم النفسية التي تبلورت في قداسة سيناء التي عاش بها موسى وقومه أربعين عاما، وفي قداسة أرض الميعاد التي تعهدوا بأن يقيموا على أرضها دولة إسرائيل من الفرات إلى النيل وهو الشعار المعلق على باب الكنيست الإسرائيلي إلى حد الآن رغم ارتباط الدولة العبرية بمعاهدات دولية تحدد حدودها مع مصر والأردن خاصة.

لقد ظل الشعور والارتباط الروحي بصحراء سيناء ثابتا في العقيدة العبرية و لم يتغير عبر آلاف السنين، وحتى اليوم يحتفل اليهود بعيدين هامين في نظرهم هما عيد Soukkat و عيد Kippur (الغفران لما يحملانه من رمزية تاريخية ترى فيه السياسة الصهيونية انتصار على عقيدة العالم العربي الذي يشكل في نظرها خطرا

---

[99]- Roux Michel : « le desert de sable », Editions l'harmattan , paris ,1996 أنظر

دائما وحالا في حين كان الحضن الدافئ الذي نشأت وتربت فيه ثقافتهم وتربى جزء منهم وهم السفرديم في العالم العربي، لكنهم جحدوا كل ذلك. ورغم انتصار الفكر اليهودي الظاهر وتحديه للعالم العربي الإسلامي إلا أن العقل العربي يواجههم يوميا وميدانيا ، درس ثقافتهم ومعتقداهم لذا فاجأهم في عيد الغفران لما له من أهمية في عقيدهم، هاجمهم في العاشر من رمضان سنة 1973 في العيد نفسه مستغلا انصراف القادة والضباط للاحتفال به وكذلك تراخي الجنود واعتقادهم أن الحدود الاسرائلية آمنة وأن خط برليف الذي أنشؤوه على قناة السويس خط منيع لا يمكن الاقتراب منه إطلاقا، هاجمهم الجيش المصري العظيم وحقق نصرا عظيما بأي مقياس عسكري.

لقد شرع الأدب الغرائبي، مع بداية الاحتلال يكتسح الفضاء الإبداعي حتى فرض مكانته كجنس يحرك المخيال الفرنسي المتخم بالكليشيهات والقوالب والصور النمطية الجاهزة، غير أنه لم يحقق موقعه إلا بصعوبة عبر مراحل متعاقبة حيث شكلت دفعات الكتاب المهاجرين les Ecrivains migrateurs ملامح الطريق أمام المرحلة الأولى متتبعين خطوات الجيش، ذلك أن العسكريين الفاتحين راحوا يتركون السبيل للمدنيين من المغامرين والهواة والمقاولين، ثم جاء بعدهم الجغرافيون والجيولوجيون متبوعين بالمهندسين الذين بدؤوا في شق الطرق ووضع السكة الحديدية شمالا وجنوبا وأطلقوا القطارات في كل الأماكن التي استقر بها الفرنسيون

أو كانت مصلحتهم تقتضي ذلك. والحقيقة أن القطار كان انجازا رائعا يحسب من ايجابيات الفرنسيين.

يرى المؤلف Roland Lebel أن الصيغة الجديدة للرواية الكولونيالية التي لا تكتفي بالصور والأحاسيس التلقائية التي تهدف إلى وصف الكائنات والمستعمرة من الداخل تجعل من نفسها أدب ولوج وفهم .[100]

"La formule nouvelle du roman colonial qui ne se satisfait pas d'images et d'impressions cueillis au hasard, mais qui veut étudier les êtres et qu' décrit la colonie du de dans ce qui fait d'elle une littérature de pénétration et de compréhension ".

إن العلاقة بين الأدب الغرائبي والأدب الاستعماري لا يمكن تجاهلها إذ أن الأول قد غذى الثاني وحضره وخصبه، من حيث أنه مع استتباب الاستعمار، تطور الأدب الغرائبي ومهد للأدب الاستعماري.

2- "علومة" قصة رمزية:

علومة قصة رمزية نشرت هذه القصة ضمن مجموعة الكاتب la main gauche ويرمز هذا التعبير لدى الفرنسيين إلى العلاقات غيرالشرعية بين الرجل والمرأة.

---

[100] -Lebel Roland :« Etudes de littérature coloniale » ,Ed :Peyronnet et cie,Paris, 1928 ,p 118.

يستهل الكاتب القصة على لسان بطلها بقوله إن احد أصدقائه أوصاه وهو يستعد لزيارة الجزائر بالمرور على احد أصدقائه المدعو أوبال وهو مستوطن بنواحي برج أبابه لكن البطل عند وصوله إلى الجزائر نسي اسم المستوطنة ونسي حتى المكان الذي يقيم فيه إلى إن إلتقاه صدفة، قضى بطل القصة أكثر من شهر يتجول راجلا متنقلا من الجزائر العاصمة التي وصلها بحرا طبعا إذ لم يكن الطيران قد اكتشف مثلما هو اليوم، وانتقل من الجزائر إلى شرشال ثم إلى اورليانفيل (الأصنام سابقا:الشلف حاليا)وأخيرا إلى تيارت وكانت كل المناطق التي مر بها غابية خاصة في الأودية حيث تتدفق بها سيول الشتاء التي تتسبب في سقوط أشجار ضخمة في المنحدرات يستعملها القرويون جسورا يعبرون بها تلك الأودية التي تكون عادة متدفقة المياه.

وفي أحد الأيام وهو يسير كالعادة على جانب الطريق ظل طريقه وما إن تسلق قمة جبل حتى ظهر له من وراء سلسلة من الروابي سهل متيجة الواسع وظهر له أيضا ذلك النصب الغريب الذي يطلق عليه سكان المنطقة "قبر الرومية" وهو في حقيقة الأمر مقبرة لإحدى أسر ملوك موريتانيا كان مأخوذا بجمال تلك الربى التي كانت تمتد من قمم الجبال الشامخة إلى أعتاب الصحراء، فشعر كأنما هي مكسوة بجلد الأسد ومخاطة إلى بعضها البعض ولعل هذه الصورة تكونت لديه نتيجة الخوف الذي كان يعتريه في مواجهة الأسود التي قيل له أنها تعمر المنطقة والتي كانت سبب إثارة ودافع

لغيره من الكتاب والرحالة ومحبي المغامرات من المجيء إلى الجزائر لصيدها وخوض التجربة.

ألم يكتب ألفونس دوديه قصة طرطران دي طراسكون الخيالية ممجدا ومتوجا نفسه بطلا على بطولات متوهمة شرح فيها للقارئ أنه قتل عشرات الأسود وهو في الحقيقة لم يقتل إلا أسدا هرما أعمى مدجن كان مريدو أحد الأولياء يستعملونه لطلب لقمة العيش عن طريق الشحادة.

كان بطل علومة يسير في الطريق سريع الخطى، خفيفا مثلما هو الشأن حينما يكون الشخص سائرا في مسالك ملتوية في منحدرات جبل وكانت أشجار التوت في طريقه تنحني في شكل غريب وكأنها تحييه محملة بثمارها الأرجوانية حيث يسيل منها عرق دموي من كل بذرة في نهاية كل غصن شبيهة بقطرة الدم ولهذا أصاب البطل إحساس بأنها أشجار شهيدة ولعل هذا الوصف كناية عن قداسة الأرض ودنس أرجل الأوروبي الذي وطأها. وكانت تلك الشعاب والوديان يلفها ضباب ضارب إلى الحمرة والسماء تشع بنور قدسي وكانت هناك خطوط ذهبية ممتدة تتناوب وخطوطا دموية —دم مرة أخرى، دم و ذهب، ذلك هو تاريخ البشرية وأحيانا تنفتح خلالها فرجة ضيقة تطل على زرقة مخضرة تبدو نهائيا وكأنها الحلم، فالكاتب هنا يقابل الدم والذهب، الدم الذي يبدله السكان الأصليون للدفاع عن أرضهم والذهب الذي يحصل عليه المعمر الغازي من أرضهم الخصبة خاصة في ذلك المكان

بالذات إذ كانت قدما البطل تطأ أديم سهل المتيحة الرائع الخصب الذي أسال لعاب المعمرين فجففو ا مستنقعاته وأحالوه إلى جنان فوق الأرض.

أحس البطل بالوحدة والبعد عن كل الأشياء إذ شعر بنفسه كائنا تائها بلا وعي ولا تفكير حتى اقترب الليل و لم يعد يتراء ى على مد البصر سوى الجبل فبدت له خيام في منخفض الأرض سار نحوها وقابل بدويا و لم يفهم من كلامه شيئا سوى أبابة أو كلمة أقرب إليها فاقنع نفسه أنه برج أبابة فأخرج من جيبه فرنكين وطلب منه أن يدله عليه، فسار خلف هذا البدوي الذي كان يمشي حافيا في درب مليء بالحجارة والأشواك، وصل أمام قلعة صغيرة بلا نوافذ خارجية وحين طرق الباب سأله من بالداخل: من هناك؟ باللغة الفرنسية، فوجد نفسه أمام السيد أوبال بالذات والصفات وكان الفتى أوبال طويلا أشقر ينتعل حذاءا و في فمه غليون، فقدم نفسه للسيد أبال الذي رحب به وأدخله إلى بيته وقدم له عشاء ساخنا أسكت به أمعاءه، ظل أوبال ساكتا يدخن بينما الراوي كان يتذكر بعض الحكايات مضيفه الذي علم أنه خسر كثيرا من أمواله على النساء واستثمر الباقي في خدمة الأرض في الجزائر، فغرس الكروم وكانت سوقها رابحة وكان سعيدا بذلك لأنها عوضته الكثير مما فقده في ملاهي وحانات أوروبا متسكعا بين مدنها ونساءها فسأله عن المدة التي قضاها في هذا المكان المعزول فأجاب السيد أوبال بأنه قضى تسع سنوات قضى الأولى منها في التكيف مع المكان ثم مافتئ أن أحبه وتعلق به لأن الهواء والمناخ يغزوان الأجسا د.

ويبقى النور المبهج يبقي الروح بقليل من الكلفة فيغسل كل زواياه ا المظلمة

هكذا كانت إجابة المضيف؛ إجابة فلسفية مبهمة تبعث على علامات الاستفهام، سأل المضيف "الراوي "عن النساء فأجاب السيد أوبال بأنهن قليلات لكن سماحة بعض العرب في القبائل يفكرون فيما يمكن أن يسعد الرومي وينير ليلته، واستطرد قائلا :-بعد أن أمر الخادم العربي بالانصراف-منذ حوالي أربع سنوات وكان ما زال لم يستقر نهائيا و لم يألف المكان جلب له خادمه فتاة عربية من الجنوب ادخلها له في مخدعه فوجئ بها تجلس على كرسي من القش وتنتظره في هدوء وقد زينت نفسها بان ارتدت الحلي في الأرجل والأيدي على عادة نساء الجنوب عندما يتزين للرجل، وقفت أمامه في استسلام أنوف تأملها أوبال -بطل القصة -تأمل قسماتها فكان وجهها عجيبا منسجما ودقيق القسمات يكتنفه غموض روحاني كتمثال بوذا شفتاها ممتلئاتان، تردد فيما ينبغي أن يفعله، اضطرب، ارتبك فراح يطرح عليها أسئلة أخرى ربحا للوقت لكي يجد لنفسه مهلة للتفكير عن أصلها وكيف وصلت إلى منزله وما علاقتها بخادمه وما القصد من زيارتها. وهو غارق في هذه الأسئلة حتى قامت ورفعت ذراعها العاريتين وعقدت يديها خلف عنقه وأخذت تشده في رجاء ورغبة لا تقاوم فكانت تجذبه بضغط بطيء وعيناها تشعان برغبة في الإغراء كانت تناديه، تشده إليها، تجرده من كل مقاومة تؤجج في نفسه أوارا عنيفا ، كان صراعها صراعا قصيرا صامتا، إنه ذلك الصراع الأبدي بين الوحشين الأدميين الذكر

والأنثى حيث ينتهي الصراع دائما بانهزام الذكر واستسلامه للأنثى يطفئ غريزتها، كانت منفعلة رشيقة ومعافاة كبهيمة تفوح منها رائحة الغزال ذلك ما جعله يجد في قبلاتها مذاقا نادرا مجهولا على حواسه كمذاق الفاكهة الاستوائية، عاش ليلته تلك فوق السحاب وفي وقت مبكر أي في تباشير الصبح الأولى طلب منها الانصراف كما جاءت، لكنها أبت قائلة له هل تريد مني أن أبيت ليلتي في العراء أتركني أنام على الزربية قرب سريرك، لكنه فكر وقرر أنه ما دامت هذه الفتاة قد ألقيت بين يديه فلماذا لا يتخذها عشيقة وأمة يخفيها داخل بيته على شاكلة نساء الحريم، وفي اللحظة التي يقرر التخلص منها سيكون ذلك سهلا وسيتمكن منه بطريقة أو بأخرى ما دامت في نظره هذه المخلوقات الإفريقية ملك لهم جسدا وروحا. فطلب منها أن تحكي له قصتها من هي؟ من أين جاءت ماذا تريد؟ ولأنه اعتقد أنها ستكذب كما يفعل العرب دائما في اعتقاده، لأن الكذب من السلوكات المذهلة في عادات أهل البلد وتصرفاتهم وهي إحدى الميزات المدهشة جدا والمستعصية على الفهم، فأهل البلد في نظره كذابون حتى النخاع إلى درجة يستحيل إغفال هذه الميزة ويتساءل أوبال هل يعود ذلك إلى دينهم؟ إنه لا بد أن تعيش بينهم لكي تدرك كيف أن الكذب هو جزء من حياتهم إذ تحول عندهم إلى طبيعة وضرورة من ضروريات الحياة.

روت له أنها ابنة "قائد" من أولاد سيدي الشيخ [*] من امرأة سباها والدها في إحدى الغارات على الطوارق وإذن فلا بد أن تكون أمة سوداء أو على الأقل نتيجة اختلاط بين الجنسين العربي والزنجي، إذ أن للزنجيات كما هو معروف أهمية كبيرة داخل الحريم، حيث يقمن بدور الإثارة الجنسية ومع ذلك فلا شيء يشير إلى أصلها ذاك ما عدا اللون القرمزي في الشفتين ولون التوت الداكن في نهديها المستطيلين الناهدين والمطواعين كأنهما مشدودان بلوالب. أما ما عدا هذه العلامات التي لا تخطئها العين الحصيفة فهي تنتمي إلى الجنس الجميل لسكان الجنوب. لم يعرف عن حقيقتها أي شيء محدد فقد روت له تفاصيل بعض حياتها بصفة غير مترابطة لذكريات تصدر عن ذاكرة مشوشة تعكس رؤية لعالم الترحال الذي تعيشه ، حكايات طويلة مليئة بالأحداث التي لا معنى لها، فتساءل أوبال هل خدعته بهذه الثرثرة الفارغة والجادة فراح يفكر في هذا الشعب يقصد الشعب الجزائري-المغلوب على أمره الذي هزم في عقر داره وسلبت أرضه وانتهكت أعراض نساءه. وكيف أنه لا يعرف هذا الشعب رغم مرور أكثر من ستين عاما على غزو فرنسا لبلاده، إنهم يعيشون قرب الفرنسيين في مخادعهم غير معروفين وغامضين وكذابين هؤلاء العرب، فشعر فجأة بحاجز غامض غير قابل للاختراق صنعته الطبيعة غير المفهومة بين الأجناس كما لم يشعر به أبدا، يقوم هذا الحاجز بين الطرفين بين تلك الفتاة العربية

[*]- كما سبقت الإشارة فقد زار الكاتب منطقة الجنوب الوهراني مراسلا لجريدة لكولوا لتغطية أحداث ثورة بوعمامة التي هي امتداد لثورة سيدي الشيخ.

وبين أوبال؛ بينه وبين تلك العربية التي سلمت نفسها وأهدت جسدها للآخر الأوروبي، فسألها السيد أوبال عن اسمها ففكرت مليا وتظاهرت بالنوم أو هبط عليها فجأة نتيجة للإعياء والجهد، وكان نوما مفاجئا وشبه صاعق كأي شيء ينقض على الحواس المتقلبة للنساء، وردت عليه في غير اكتراث وهي تتثاءب "علومة"، واستسلمت للنوم. أما أوبال فراح يحلم ويتساءل عن السبب الذي جعل خادمه العربي يهدي له هذه الفتاة رغم أنه هو الذي ظفر بها واستدرجها إلى خيمته، ما هي الأسباب التي جعلته يهديها له، أهي مؤامرة؟ أم أن الخادم ذو نوايا طيبة وأراد أن يكرم سيده بإهدائها له، كل هذه الأسئلة دارت في مخيلة السيد أوبال حتى استسلم هو بدوره إلى النوم.

استيقظ على صرير الباب، حيث دخل محمد ليوقظه ويوفر له فطور الصباح. فتح النافذة فتدفق منها نور الصباح ليضيء جسم علومة التي كانت ما تزال نائمة. لم يلق الخادم أية نظرة على المرأة، وبوقاره المعتاد مشى متحفظا، استيقظت علومة مددت ذراعيها والتفت وفتحت عيناها وجلست قائلة:

– إنني جائعة اليوم

– أريد قهوة وخبزا وزبدة

– فنادى السيد أوبال خادمه: هات الفطور لعلومة

سأل أوبال السيدة العربية إن كانت تريد أن تقيم في مترله فرحبت بالعرض وقبلت يده دلالة على الخضوع، فأعطى أوامره بأن تفرد لها حجرة خاصة بها وأن تفرش لها بالزرابي وأن تحضر لها زوجة أحد عماله خادمة لها.

طوال شهر عاش معها سعيدا متعلقا بشكل غريب بهذه العربية التي اعتقد أنها تنتمي إلى جنس آخر وولدت في كوكب آخر مجاور للأرض.

لم يحب أوبال علومة لأنه كان يعتقد أن فتيات هذه القارة لسن جديرات بالحب، لأن قلوبهن شديدة الغلظة وأحاسيسهن قليلة الرقة، بحيث لا يمكن أن توقظ في الإنسان الأوروبي الإثارة العاطفية التي هي شعر الحب. لا ثقافة ولا نشوة فكرية تتمازج مع النشوة الحسية التي تثيرها في الإنسان الكائنات اللطيفة ومع ذلك فهو مشدود إليها يأخذها مثل الأخريات ولكن بشكل مختلف. إن ما يحس به نحو علومة شيء مختلف لا يمكن أن يشرحه أو يفسره إنه ذلك الانجذاب نحو إفريقيا العارية العاطلة الخالية من كل اللطائف الفكرية يغزو أجسام الأوروبيين شيئا فشيئا بسحر غير معروف، باللطف الدائب لأسحارها وأماسيها، بضوئها المبهج، بمتعها الخفية، فقد استولت عليه علومة التي لم يجدها جديرة بالحب كغيرها من النساء العربيات الإفريقيات، استولت عليه بالكيفية نفسها، فافتتاها الآسر الخفي والظاهر، بإغرائها النفاذ الذي يعود إلى استسلامها اللطيف.

كانت تقضي أحيانا نهارا كاملا أمام المرآة تبدي إعجابا بنفسها، تقيم بعض الحركات وتمشي مشية الطاووس زهوا وخيلاء.

بعد ذلك بمدة لاحظ أوبال أن علومة تخرج كل يوم تقريبا بعد الغذاء وتختفي تماما حتى المساء، شغله أمرها بعض الشيء لكنه قبل الوضع على ما هو عليه دون أن يفهمه تاركا الزمن ومصادفات الحياة تفعل فعلها، وذات مساء وفي طريق عودته بعد أن راقب كرومه ومستصلحاته الزراعية مر على مقربة من قبة ولي صالح، ألقى نظرة على الباب المفتوح دوما رأى امرأة تصلي أمام الضريح، كانت بالنسبة له لوحة رائعة، امرأة عربية تجلس على الأرض في غرفة خربة حيث تدخل الريح على هواها وتجمع في زواياها أكواما صفراء من الإبر الدقيقة الجافة المتساقطة من الصنوبر، اقترب منها قليلا فتبين له أنها علومة، لم تره، لم تسمعه، انشغالها بالتعبد وبالولي يستغرق كل كيانها كأنها راهب في صومعته، كانت تتحدث بصوت منخفض تتحدث إليه معتقدة أنها معه بمفردها تراه ويراها، تبوح له بكل همومها. انصرف السيد أوبال إلى مسكنه دون أن يشعرها بوجوده وفي المساء طلب حضورها فأجلسها إلى جانبه في الأريكة ومال عليها يريد تقبيلها فامتنعت وعندما استفسرها أخبرته بأنه رمضان والصيام يمنع عليها الأكل والشرب من طلوع الشمس إلى غروبها ويمنع عليها كل تلك الأشياء التي يريدها السيد أوبال قائلة له:

– إذا تركت فتاة عربية روميا يلمسها في رمضان فإنها ستلعن إلى الأبد.

– وسألها هل يدوم هذا طيلة رمضان

– فأجابته بنعم

– فقال لها إذن تستطيعين أن تذهبي إلى أهلك لقضاء رمضان كله

فاستعطفته ورجته أن لا يكون سيئا معها لأنها لا تريد أن تعود إلى أهلها بعد أن غادرتهم لأن الأعراف الاجتماعية تمنع المرأة غير المتزوجة أن تغادر أهلها إلى وجهة مجهولة، وهي قد فعلت فعلتها وحياؤها يمنعها من العودة إليهم ثانية، وتعهدت له بأنها ستكون لطيفة معه وستقضي رمضان معه، وبالليل وهو يتهيأ لدخول فراشه سمع دقتين خفيفتين على الباب فرأى علومة وهي تحمل طبقا كبيرا مملوءا بالحلوى العربية.

كانت تضحك مبدية أسنانها الجميلة وتردد:

– سنؤدي رمضان معا.

مر رمضان متثاقلا مثيرا للغضب، شهرا للدلال والإغراءات ولنوبات الغضب وللجهود غير المجدية ضد مقاومة لا تقهر، وحين جاء العيد احتفل به بطريقته الخاصة فنسي رمضان.

مر الصيف وكان شديد الحرارة وفي الأيام الأولى للخريف بدت له علومة منشغلة ساهمة وزاهدة في كل شيء وذات مساء لم يعثر لها على أثر فاعتقد أن يكون قد أصابها مكروه أو انزلقت في عمق منحدر، فاستنفر كل رجال الخيام وأمرهم بالبحث عنها، فبحثوا عنها في كل مكان أياما وليالي ولم يعثروا لها على أثر.

كابد السيد أوبال الصبابة والجوى وبدا له البيت خاليا وحياته موحشة فكان يردد كلمة "ذهب الغزال" كأنما يريد أن يعبر عن سرعة جريها أو أنها صارت بعيدة، ومرت أسابيع بطيئة وقاتلة حتى دخل عليه الخادم ذات صباح وقد أشرق وجهه من الفرحة قائلا بأن علومة عادت، قفز السيد أوبال من السرير فرحا يسأل عن مكانها يريد أن يراها، أن يكحل عينيه برؤيتها وصاح فيها من بعيد: من أين أتيت؟ لم تجبه وظلت ساكنة جامدة،كأنها فقدت الحياة أو كادت، ألح عليها بالسؤال مهددا متوعدا فأجابته أنه كان لا بد أن ترحل لأنها لم يكن باستطاعتها العيش في بيته، إذ كانت تشعر في قلبها المتعود على الترحال برغبة لا تقاوم في الرجوع تحت الخيام والنوم والجري والتمرغ على الرمل، في التنقل وراء القطعان من سهل إلى سهل، و أن لا تحس أن فوق رأسها سقف يحجب بينها وبين نجوم السماء، أفهمته كل ذلك بعبارات ساذجة ولكن بنبرة صادقة أحس أنها لا تكذب فأشفق عليها وأمسك بيدها الناعمة، بأصابعها الرشيقة ورافقته تمشي مشية الانتصار والوقار.

عادت حياتهما إلى ما كانت عليه من قبل وعاد السيد أوبال يكابد جاذبية هذه البنت، جاذبية الجسم الخالصة، وخلال ستة أشهر سار كل شيء على ما يرام وكان كلما لاحظ عصبيتها سمح لها بزيارة أهلها، تروح وتجيء على مدار عامين كاملين، كلما تعبت من حياة السيد أوبال يسمح لها بالزيارة، تعود بعدها رثة الثياب كالمعتاد، سوداء من الغبار والشمس وقد شبعت من حياة الترحال ومن الرمل والحرية كان يستعيدها في كل مرة دون غيرة لأن الغيرة لا تولد إلا من الحب فقد كان من الممكن أن يقتلها بالتأكيد لو فاجأها وهي تخونه، كما أنه كان سيقتلها بدافع العنف الخالص كما يقتل كلبا يظهر العصيان وما كان ليحس بتلك العذابات، تلك النار المؤججة، ذلك الألم الفظيع غيرة الشمال، كان سيقتلها كما يقتل كلبا يظهر العصيان لأنه بالفعل كان يحبها حب المرء لحيوان نادر الوجود، كلب أو حصان يصعب تعويضه فقد كانت علومة بهيمة تثير الإعجاب، بهيمة شهوانية، بهيمة للمتعة لها جسم امرأة.

كان أوبال يحس بأن علومة عبارة عن شيء من الأشياء البيت، شيء مهم في حياته، عادة جميلة يتمسك بها ويحبها الرجل الشهواني فيه، إلى أن جاء ذلك اليوم حيث دخل عليه خادمه بوجه غير معهود وفي عينيه قلق بين تشبهان نظرة القط الشزراء في مواجهة كلب، فاعلمه بأن علومة هربت مع ذلك المتشرد الذي كانت

تلتقي معه يوميا وعلى مدار أسبوع من المراقبة، خلف غابة الصبار المجاورة وفي الليلة السابقة رآهما خادمه يخرجان دون أن يعودا.

حاول السيد أوبال وهو مقبوض القلب فائر الدم أن يتذكر ملامح ذلك الرجل فاستحضر صورته إذ رآه في الأسبوع الماضي واقفا فوق مرتفع من الأرض وسط قطيعه ينظر إلى السيد أوبال...كان بدويا طويلا يتداخل لون أعضائه العارية مع لون أطماره، هو من ذلك اللون الهمجي الفظ بأنفه المعقوف وذهنه الهارب وساقيه الجافتين، كان هيكلا مديدا بعيني ذئب مخادعتين.

لم يساوره أدنى شك في أنها هربت مع ذلك الصعلوك لأنها كانت علومة، إحدى بنات الرمل، قال لخادمه:

– حسنا، إذا كانت قد ذهبت فهي الخاسرة، دعني وحيدا إن لدي رسائل سأكتبها.

انصرف الخادم وقد أدهشه هدوء سيده، قام من مكانه وفتح النافذة لكي يستنشق الهواء، لكن ريح الجنوب "السيروكو" كان يهب وفي مونولوج داخلي قال:

– يا إلهي إنها امرأة كغيرها من النساء الكثيرات لا نعرف ما يدفعهن إلى مسلك معين، وما يجعلهن يحببن أويتبعن أويتركن رجلا، بلى، إننا نعرف أحيانا، وغالبا ما لا نعرف وبداخلنا الشك في بعض الحالات"

– وواصل تساؤله : لماذا اختفت مع ذلك الهمجي المقرف؟ ربما لأن الريح تهب منذ شهر من الجنوب بشكل منتظم.

تحليل:

عرض الكاتب صورة علومة بأسلوب سردي متضمنا شيئا من الحوار ومقطعا أجزاء الصورة مقدما البعض ومؤخرا البعض الآخر فلا تكتمل الصورة إلا بنهاية الحديث مع إهمال الصفات الجسمية تقريبا : "كان وجهها جامدا كالصنم ... وقد تقلدت تلك الحلي الفضية التي تتقلدها نساء الجنوب في الأرجل والأيدي وألقت علي نظرة طويلة من عينين زاد الكحل من اتساعهما...وكانت ذراعاها المثقلتان بالأساور تستريحان فوق فخضيها اللذين كانت تغطيهما جبة حرير حمراء"[101]

تلك هي علومة التي عاشرت المؤلف بطل الرواية دون أن تحبه وهو الآخر لم يشعر نحوها بأية عاطفة أو شعور من هذا القبيل، رسم الروائي صورتها بأسلوب سردي إيحائي ذي جمل شاعرية مشيرا إلى القليل من صفاتها الجسمية "كان وجهها عجيبا، منسجما ودقيق القسمات، ومتوحشا نوعا ما، إلا أن فيه غموضا روحانيا كتمثال "بوذا" وكانت الشفتان ممتلئتين ومصطبغتين بصبغة حمراء مزهرة"[102] فهي جميلة وصدرها ثائر ولذلك تتملكها الرغبة أثناء تعريها وتتلذذ بمداعبة أجزاء جسمها لأنها عطشة تبحث عن الارتواء .

يريد المؤلف غي دو موبسان الذي سبق له أن زار الجزائر كمدني يراسل جريدة تصدر في باريس، يغطي لها أحداث انتفاضة بوعمامة في الجنوب الوهراني، أن يقول لمواطنيه أنه من الضروري على فرنسا أن تتنبأ لأي رد فعل للأهالي، هذا المؤلف الذي سبق له أن تساءل عن أسباب ثورة بوعمامة 1881، يقف حائرا أمام المعمرين الذين يعيشون وسط الأهالي ومع ذلك

---

[101]- علومة ترجمة د.أحمد منور، الجزائر،في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن19 ،2007، ص 95 .

[102]- نفسه ص 96 .

لا يعرفون الشيء الكثير عنهم "أظن –يقول بطل القصة– أن هذا الشعب المقهور الذي بدأنا نتعلم لغته والذي نراه يعيش كل يوم تحت خيمه الشفافة والذي نفرض عليه قوانيننا وتنظيماتنا وعاداتنا، ونجهل كل شيء عنه وكأننا لسنا هنا. مشغولون برؤيته والتفرج عليه منذ 60 عاما"[103] .

إن القلق الذي يساور غي دو موبسان هو قلق كل المعمرين، الناتج عن علاقة السيد بالعبد،لأن المحتل كان يسعى دائما لأن يؤكد ذاته كسيد،يجب عليه أن يعرف كل شيء عن عبده، علاقة مستعمر(بكسر الميم) ومستعمر(بفتح الميم) Rapport colonisateur/colonisé

فعلومة هي رمز للجزائر وأوبال رمز للمعمر وللاستعمار الفرنسي والعلاقة هي علاقة استعمار واستبداد وقهر وقتل ودماء، لذا يأتي عنوان المجموعة تعبيرا عن هذه العلاقات غير شرعية التي قامت على هذه الأرض، هذه القصة مثل قصص أخرى تتعلق بالجزائر وما أصابها نتيجة الممارسة الاستعمارية، فقد كتب غي دوموبسان قصة ذات مساء في بجاية نشرت ضمن المجموعة المذكورة، ويدخل ما كتبه عن الجزائر ضمن ذلك الإعجاب بالصحراء والرمل تغذيه النظرة الغرائبية التي شقت طريق الاستعمار فأسس الأدبين "الغرائبي والاستعماري"؛ نظام تمثلات للمجال الاستعماري وسعيه الذي يتم فهمه والتقرب منه إلا بعد زوال الاستعمار كما يذهب إلى ذلك Bourdieu [104].

[103]- Guy De Maupassant : "Alouma " la main gauche,ed albin dichel ,paris ,1951 ,p : 24/25 .

[104] - G. Bourdieu : « in l’Algérianiste », n° 60 décembre, 1992, p .153 et 154.

وقد ركزت العقلية الغرائبية على العناصر المادية في هذا العالم الجديد المنفتح على كل ممكن، حيث تفلت الجزائر -التي ينظر لها على أنها صحراء-من الزمن ومن التاريخ فهي إذن مجال لإطلاق العنان للخيال وهي بالطبع مرجع إلهام لأنها تندرج ضمن تقليد موروث عن الكتاب المقدس عند هذه الشريحة من الكتاب، كما سلف أن ذكرنا في بداية هذا الجزء من البحث، فالصحراء مكان للمخاطر والموت وهي مكان ملعون ومسكون بالجن تجري فيه حوادث يعجز المنطق عن تفسيرها لكنها مكان مثالي للتصوف، فهي ملجأ وديكور سحري مفعم في الوقت نفسه بكل القوالب المنسوبة إلى الثقافة المنظورة.

فالكاتب يصف علومة بأن وجهها كان عجيبا ومنسجم ودقيق القسمات ومتوحشا نوعا ما إلا أن فيه غموضا روحانيا وكانت شفتاها ممتلئتين ومصطبغتين حمراء مزهرة نجد لها مثيلا في أماكن أخرى من جسمها تشير إلى اختلاط دمها اختلاطا خفيفا بالدم الأسود، حتى وإن كانت يداها وذارعاها بيضاء لا عيب فيه،

فجمال الوجه وانسجام قسماته دليل على جمال الجزائر بطبيعتها الخلابة وبروحانيتها الغامضة إذا سكنت الجزائر شعوب مختلفة قبل الفتح الإسلامي وبعده وانصهرت كلها في بوتقة واحدة أنتجت تركيبة ديموغرافية أدانت بعد الفتح الإسلامي بالدين الجديد واتبعت شعوبها مذهبا دينيا واحدا وهو المذهب المالكي إلى جانب المذهب الاباضي عند سكان وادي ميزاب دون أن ننفي عناصر أخرى

وديانات أخرى سابقة فقد عاش في الجزائر ولا زال عدد غير محدود من المسيحيين واليهود يتجاهلهم المجتمع لكن حقوقهم السياسية والدينية محفوظة ترعاها الدولة.

عندما دخل أوبال (الذي هو رمز المعمر) إلى غرفتها وجدها وقد تقلدت الحلي الفضية التي تتقلدها نساء الجزائر في الأرجل والأيدي وفي الرقبة، تردد فيما ينبغي أن يفعله كان مضطربا ومستثارا ومرتبكا طرح عليها مجموعة أسئلة يريد أن يربح بها بعض الوقت لكنه كان في نفس الوقت يفكر في أصلها وفصلها، وهذا دليل على أن الاستعمار الفرنسي الذي يرمز إليه أوبال كان في بداية تواجده بالجزائر حائرا و مرتبكا يسال ويتساءل عن كل وسيلة يستولي بها على الأرض والشعب حتى يسهل عليه السيطرة على البلاد واستغلالها واستتراف خيراتها.

علومة وصلت إلى المعمر أوبال عن طريق خادمه العربي "محمد" كناية عن أن الجزائر وقعت تحت نير الاستعمار بفعل "الخيانة" خيانة بعض أهلها الذين تعاونوا مع الاستعمار فخدموه وسهلوا له الطريق حتى يستغل أرضهم وشعبهم، ويضيف الكاتب بأنها قامت فجأة ورفعت ذراعها العاريتين وأخذت تشده إليها في رجاء ورغبة لا تقاوم وكانت عيناها متشبعتان برغبة الإغراء وبدافع حب التغلب على الرجل وكانت تشده إليها وتؤجج في نفسه أوارا عنيفا فكان ذلك الصراع الأبدي بين الوحشين الإنسانيين: الذكر والأنثى حيث ينتهي الصراع دائما بانهزام الذكر، فالجزائر أغرت الأوروبيين جميعا وتمكن منها الفرنسيون، أحبوها لجمالها ولمالها لم

تعانق جنسا منهم وإذ ضعفت أو استكانت في فترة ما فإنه على مدار قرن ونصف من الاحتلال اشتعلت الثورات هنا وهناك إلى أن توجت بالثورة التحريرية المباركة التي انتهت بالاستقلال الذي لم يهضمه الشعب الجزائري و لم يحافظ عليه بفعل تلك الطبقة الطفيلية المسماة البورجوازي ة الكمبرادورية ذات المصالح المرتبطة بالخارج والتي حذر منها الكاتب الثائر فرانز فانون *.

كان أوبال يعتقد في قرارة نفسه أن علومة ستكذب في كل ما تقوله كما يكذب العرب دائما في جميع المناسبات وبدون سبب، فالكذب في نظر الأوروبي هو إحدى الميزات المدهشة والمستعصية على الفهم في سلوك الأهالي، فسلوك الأوروبي باحتلاله الأرض بالقوة وبانتزاع أجودها بالقوة وبالقانون الذي يضع العربي في الدرجة السفلى كله حضارة في نظر أوبال رمز الحضارة الغربية؟ ألم تكن حضارة الغرب قائمة على العنف والقوة والاغتصاب؟ حدث هذا في إفريقيا وأسيا وأمريكا؛ قارة بكاملها استغلت ونهبت واستعبدت وأبيدت شعوبها ودكت حصونها وأفنيت معالم حضارتها، هذا كله ليس شيئا بجانب الكذب الذي يمارسه الأهالي عندما يسأله أحد الأوروبيين. فهم الذين ابتدعوا مصطلح الاستعمار وهو في الحقيقة استدمار وتقوم نظرتهم على أن في العالم شعوبا ذكية وشعوبا متخلفة غير ذكية، ومن الواجب على الصنف الذكي أن يستغل الصنف الآخر المتخلف.

* - Frantz fanon طبيب و كاتب مارتنيكي انظم إلى الثورة الجزائرية فكتب عنها مؤلفات تخلد ذكراه و هو صاحب نظرية عقدة المستعمر le complexe du colonisé من أهم مؤلفاته "المعذبون في الأرض" .

بدأت علومة بالتعريف بنفسها وبأنها ابنة قائد من أولاد سيد الشيخ من امرأة سباها والدها في إحدى الغارات على الطوارق وإذن تكون أمها أمة سوداء لذا جاءت ملامحها ودم علومة خليطا من هذه العرقين، يشير الكاتب إلى أولاد سيدي الشيخ و قد سبق لنا في بداية هذا الفصل أن أشرنا إلى أن الكاتب زار الجزائر مرة مراسلا لصحيفة "لوكولوا" لتغطية ثورة الشيخ بوعمامة التي هي امتداد لثورة أولاد سيدي الشيخ التي جرت قبلها، لذا أراد أن يصفي حساباته مع هذه القبيلة المجاهدة التي كبدت أبناء جلدته هزائم مرة، فاتخذ من علومة بنتا لأحد قادتهم، فالقصة قصة خيالية ورمزية و لم تحدث على أرض الواقع، فعلومة رمز الجزائر وأوبال رمز أوروبا المستعمرة، أما كون أم علومة أمة زنجية من السبايا في إحدى الغزوات على التوارق فهي إشارة إلى اختلاط الدم العربي بالدم الزنجي وإشارة إلى امتزاج الأعراق والأنساب في الجزائر، وإلى أن العرب والزنج لم يكونو ا مجتمعا واحدا موحدا فقد مارس العرب أنواعا من الرق والاستعباد على الزنوج وكأن الإسلام لم يعلمهم أنه "لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على اسود إلى بالتقوى" وقد استمر الرق إلى عهد قريب وانتهى باستقلال الجزائر حيث حاربت الثورة هذا المفهوم وألغت هذه الممارسة الشائعة التي مارسها العرب في الجنوب على إخوان لهم في العقيدة عيبهم سواد بشرتهم.

سردت علومة قصة حياتها على مسمع أوبال بتفاصيل غير مترابطة صادرة عن ذاكرة مشوشة تعكس رؤية كاملة عن عالم الترحال فتساءل إن لم تكن قد خدعته بهذه الثرثرة الفارغة فراح يفكر في حقيقة الشعب المغلوب على نفيه الذي يقيم بينه الأوروبيين ويقيم هو بينهم فأدرك أنه لا يعرف هذا الشعب رغم مرور أكثر من نصف قرن أو يزيد، حتى وإن بدأ الأوروبي يتعلم لغة الأهالي فانه لا زال لا يدرك ما يجري خلف أسوار المدن المورسيكية ولا تحت الخيمة الوبرية التي يأوي إليها البدوي والتي اتخذ من مثيلتها خادمه محمد مأواه على أبواب البرج الذي يسكنه أوبال، فالأهالي يعيشون خاضعين مبتسمين منطويين على أنفسهم ولا يمكن لأوبال ومن يرمز إليهم التكهن بما يجري داخل بيوتهم من أباطيل وطقوس وممارسات أخرى لا حصر لها بالنسبة للأوروبي والتي لا تخطر له على بال ليصل إلى حقيقة مرة هو أنه لا يوجد شعب غزي بالقوة، أمكن له أن يفلت تماما على هذا النحو من سيطرة الغالب الفعلية ومن تأثيره المعنوي وإصراره على معرفة المغلوب بلا جدوى، فهذا لسان حال أوبال رمز الأوروبيين في الجزائر ولعلها قناعة راسخة عند الكاتب نفسه الذي جال الجزائر مراسلا حربيا وباحثا وسائحا وكتب ثلاث قصص عن الجزائر "علومة" و"ذات مساء في بجاية" و"محمد فريبوي" كلها طرحت علامات استفهام جالت في ذهن الكاتب وخاطره تتعلق بماهية الشعب الجزائري بعاداته وتقاليده، بسوء أو عدم تمكن الغازي من فهم نفسيته إذ عبر الكاتب عن هذا الشعور بقوله:

"وشعرت فجأة بهذا الحاجز الغامض غير القابل للاختراق، الذي صنعته الطبيعة غير المفهومة بين الأجناس كما لم اشعر به أبدا، يقوم بين هذه الفتاة العربية وبيني، بين هذه المرأة التي أعطت وسلمت نفسها وأهدت جسدها لملامساتي وبيني أنا الذي امتلكها".

طوال الشهر الأول عاش أوبال سعيدا مع علومة كان متعلقا بها بشكل غريب، أحس أنها مخلوقة تنتمي إلى جنس آخر وبدت له كأنها نوع آخر من البشر ولد في كوكب مجاور. أفصح عن حقيقة مشاعره بأنه لا يحبها لأن في نظره فتيات هذه القارة لا تحب وبالتعبير الفرنسي الشائع انه لا يمكن لزهرة بلاد شمال الصغيرة الزرقاء أن تتفتح في هذا الوسط، إن فتيات هذه القارة البدائية اقرب إلى حيوانية الإنسان، إن لديهن قلوب شديدة الغلظة وأحاسيس قليلة الرقة، بحيث انه لا يمكن لها أن توقظ في نفوس الأوروبيين أهل الشمال الإثارة العاطفية التي هي شعر الحب ولا النشوة الفكرية التي تتمازج مع النشوة الحسية التي تثيرها فيهم الكائنات اللطيفة.

بعد ذلك بمدة قصيرة لاحظ أنها كانت تخرج كل يوم تقريبا ولا تعود إلا مساءا فشغله أمرها وارتاب فيه فسال خادمه محمدا إن كان يعلم ما عساها أن تكون مشغولة به فأجابه الخادم بان رمضان سيحل قريبا ولا شك أنها تذهب للتعبد، لم يهتم أوبال بالأمر حتى اكتشف الأمر بمحض الصدفة ذات مساء في طريق عودته إلى منزله اكتشفها في محراب أحد الصالحين تصلي وهي مشتغلة عن كل تفاهات

الدنيا، فلم يرد أن يزعجها أو يفسد معراجها إلى الملكوت، "كانت لوحة رائعة تلك المرأة العربية وهي تجلس على الأرض في تلك الغرفة الخربة وانشغالها بالولي يستغرق كل كيانها تتحدث إليه معتقدة أنها معه بمفردها وتبوح له بكل همومها وكأنه يسمعها أو هكذا تعتقد".

وحل شهر رمضان فصامت علومة ولم تسمح لأوبال أن يقترب منها رغم أن العلاقة التي تربطهما علاقة غير شرعية فهي مسلمة وهو مسيحي أو لا ديني أصلا، ولكن رمضان مقدس عند الجزائريين مند الأزل وهو الشعيرة الدينية الوحيدة التي يحترمها الجزائريون كبارا وصغارا رغم أنهم يقومون بتصرفات تنافي والصيام من غش في الأسواق وجشع واحتكار لكنهم يصومون إذ يمتنعون عن الأكل والشرب فقط من طلوع الشمس إلى غروبها اعتقادا منهم أن هذا هو الصيام وكان هذا التصرف محل سخرية منه .

مضى شهر رمضان وكان شهرا للإغراءات ولنوبات الغضب ولجهود غير مجدية ضد مقاومة لا تقهر، مر فصل الصيف وكان شديد الحرارة وفي بداية الخريف بدت علومة لأوبال منشغلة وزاهدة في كل شيء وذات يوم اختفت، كلف من يبحث عنها في كل مكان فلم يعثرو ا عليها، أصيب باكتئاب واشتاق إليها وكان البيت يبدوا له فارغا وبعد عدة أسابيع عادت وقد ارتدت أسمالا بالية فعنفها تعنيفا فاعتذرت له بأن قلبها المتعود على الترحال أجبرها على الرجوع تحت الخيام والنوم

والجري والتمرغ على الرمل وفي التنقل وراء القطعان من سهل إلى سهل وكانت تحدثه بلهجة صادقة بعثت فيه إحساسا بأنها لا تكذب "لقد ذهبت عند أهلي، وها أنذا أعود، كنت في حاجة إلى أيام قليلة هناك يكفيني الآن، لقد انتهى، لقد فات، لقد شفيت، لقد عدت، لقد زال عني الداء أنني جد مسرورة" كان الرجوع إلى أهلها والتمتع بالحرية والتنقل بين المروج وراء القطعان بين أهلها بلسما داوى جراحها النفسية كيف لا وهي الصبية التي عرفت الحرية ونشأت بين قومها في عز وأنفة، غدرت بها الأيام وهي بنت الحسب والنسب إلى أن تعيش عيشة بوهمية متنقلة من مكان إلى مكان أخر وفي آخر المطاف وجدت نفسها في فراش الرومي تقدم له جسدها متعة في علاقة غير شرعية، كناية عن وقوع الجزائر فريسة تحت نير الاستعمار. عادت حياتهما إلى ما كانت عليه من قبل وعاد أوبال يكابد جاذبية علومة أكثر فأكثر جاذبية الجسم الخالصة وبعد ستة أشهر أحس أنها عادت إلى عصبيتها واضطرابها فأحس أنها اشتاقت إلى العودة إلى أوطانها إلى أهلها إلى الأماكن ركضت فيها صبية وعاشت فيها مراهقة وشعرت فيها أنها امرأة مع حكايات الحب الساذجة مع أحد أبناء عمومتها أو أحد جيرانها فسمح لها بزيارة أهلها فذهبت وعادت كما عادت في المرة الأولى، رثة الثياب، سوداء من الغبار والشمس وقد تشبعت من حياة الترحال ومن الرمال والحرية، وخلال عامين عادت إلى ديارها عدة

مرات إلى أن اختفت مرة أخرى و لم تعد أبدا إذ فضلت الهروب مع أحد أبناء جلدتها وكان مدير أعمال أوبال قد شغله راعيا في الشهر السابق لاختفائها.

لم يصدق أوبال كلام خادمه وهو يحدثه كما لم يصدق المعمرون استقلال الجزائر، راقبها خادمه كما تراقب فرنسا دولة الجزائر المستقلة عن طريق أعوانها المدسوسين في مختلف المراكز صاحبة القرار. وكان يحاول وهو مقبوض القلب فائر الدم أن يتذكر ملامح الرجل الذي كان قد رآه فوق مرتفع من الأرض وسط قطيعه كان بدويا طويلا وهو من ذلك النوع الهمجي الفظ، كان هيكلا مديدا في هلاهل بعني ذئب مخادعتين،وقد يكون هذا إسقاطا على الذين حكموا الجزائر بعد الاستقلال و لم تكن فرنسا راضية عليهم

عاد أوبال إلى بيته-عادت فرنسا إلى أراضيها- وألف سؤال وسؤال يلح عليه، لماذا اختفت مع ذاك الهمجي المقرف لماذا؟ ربما لأن الريح تهب منذ أشهر من الجنوب بشكل منتظم إشارة إلى ثورة بوعمامة التي أوارها لا زال مشتعلا، فريح الجنوب هي الثورة الشعبية وعلومة هي الأمة الجزائرية التي قررت مصيرها بنفسها واختارت أحد أبناء جلدتها حتى ولو كان فلاحا راعيا للأغنام صعلوكا متشردا فضلته على الرومي المسيحي الذي اغتصب أرض أجدادها واستأثر بخيراتها يحولها إلى ما وراء البحار، لم يدرك أوبال-رمز فرنسا- أن علومة وهي رمز المرأة الجزائرية، رمز الأمة الجزائرية، اختارت طريق الحرية واختارت أن تعيش بكل حرية في الرمل والشعاب الوهاد

تنتقل أينما أرادت أخذة مصيرها بيدها، تحدد حاضرها وتبني مستقلها وفق القيم التي تتماشى مع تاريخها وشخصيتها ودينها.

تساؤلات دوخت أوبال وهو يقف في نافدة بيته يستنشق بعمق هواء الجنوب الخانق، نسيم إفريقيا الذي كان يحمل إلى قلبه الجذل رائحة الصحراء، رائحة القارة الكبيرة المليئة بالأسرار التي لم يتوغل فيها رجل الشمال بعد، يقف على حافة عالم عجيب ومجهول، على شاطئ أرض مدهشة، أرض النعام والجمال والغزلان وفرس النهر والغوريلا والفيل والزنج، وكان قد شاهد العربي في الصحراء من قبل يركض بحصانه يسابق الريح ويمر مثل البرق يرفرف ويطير وينام تحت الخيمة السمراء، وكان أوبال ثملا بالضوء والفروسية والفضاء الشاسع وكذلك كان الكاتب غي موبسان عاش كل هذه المظاهر وانبهر بها، فأحب الجزائر بأرضها وبحرها ولكنه لم يحب شعبها وهو الذي عاش فترة مراسلا صحفيا حربيا ناقلا لقومه أخبار المعارك واصفا بطولات جيش فرنسا، لكنه كان منبهرا بتلك القبائل البدوية التي وقفت كرجل واحد حول شيخ صوفي تدافع عن شرفها وأرضها مضحية بالنفس والنفيس، قبائل لم يدخل رجالها المدارس والأكاديميات العسكرية لكنهم تربوا على مقولة السلف الصالح "علموا أبناءكم الرماية والسباحة وركوب الخيل".

هذه كلها صور شاهدها المؤلف غي دي موبسان بأم عينيه فحيرته أسئلة وجودية تتعلق بالمسير والمصير مسيرة فرنسا و مغامرتها في قارة مليئة بالأسرار، لم

تستطع الدراسات الانتربولوجية أن تفك ألغازها ومصير المعمرين الذين تجمعوا في شمال المستعمرة يستصلحون الغابات لإنشاء فلاحة مرتبطة أساسا باستهلاك الدولة الأم والذين يضعون أيدهم على أجود الأراضي المملوكة للجزائريين بالحيلة والقانون أحيانا وبالمكر والقهر أحيانا أخرى .

الفصل الثالث

صورة الجزائر في أدب لويس برتراند

لويس برتراند **Louis Bertrand**:

1- حياته :

لويس برتراند كاتب فرنسي ولد في 20 مارس 1866 بقرية سبينكور Spincourtبإقليم La Meuse، والده هو فرديناند نيكولا برتراند Ferdinand Nicolas Bertrand كاتب ضبط بأحد المحاكم، وأمه هي غيلمينو اميلي Guilminot Emili، كانت له أخت وحيدة، عاش طفولة محظوظة، توفي سنة 1941 بمدينة Antibe.

بعد الدراسة بالثانوية التحق بمدرسة المعلمين العليا، وبعد تخرجه درس بثانوية آكس أون بروفانس Aix en Provence، في السنة الدراسة 1888-1889، واستهوته الأرياف وعاش هذه الفترة محبوبا من تلامذته وسط جو مشحون بالضغوط، انتقل بعد ذلك إلى ثانوية Bourg en Bresse،لكن المناخ لم يعجبه فقرر الهجرة إلى الجزائر التي حل بها سنة 1889، وفي الطريق إلى الجزائر وعلى ظهر الباخرة التقى بأحد زملائه إميل بومون Emile Beaummaun، الذي أصبح فيما بعد كاتبا ذائع الصيت .

2- الأحداث التي أثرت في لويس برتراند في صباه :

في مؤلفه مالوران Ma lorraine يتحدث الكاتب عن الأحداث التي عاشها وهو صبي عندما غزا الجيش الألماني منطقته التي ظلت موضوع نزاع بين ألمانيا وفرنسا إلى غاية انتهاء الحرب العالمية الثانية وسقوط هتلر وتقسيم ألمانيا إلى دولتين تخضع كل واحدة منها إلى معسكر معادي للآخر في إطار حرب باردة لم تنته إلا بانهيار الاتحاد السوفياتي كدولة عظمى تدور في فلكها دول كثيرة أغلبها من العالم الثالث وحل حلف وارسو العسكري.

عاش سكان منطقة اللوران la lorraine قلقا لا حدود له وهم يشاهدون الجيوش الألمانية تغزو منطقتهم ولا تقابلها إلا بعض فرق المقاومة الشعبية غير المدربة وغير المسلحة، وتضاعف قلقهم وحيرتهم وهم يعاينون انهيار الجيش الفرنسي بهذه السهولة. كان سكان هذه المنطقة هم الشاهد الأول على الانهيار المخزي للجيش الفرنسي، جيش نابليون الثالث، ففي قصة la débâcle التي صدرت سنة 1892 تحدث إميل زولا Emile Zola عن حرب سنة 1870، ففيها يصور الأحداث كما وقعت وكما يرويها التاريخ، يصف فيها انهيار الجيش الفرنسي ، وكذلك تحدث الكاتب باريس M. Barrès في روايته الربوة المستلهمة la colline inspirée عن اجتياح الجيش الألماني لإحدى المدن

الواقعة في منطقته بقوله:"كانوا يصادرون الأموال العمومية، لقد شحنوا كل اللحوم، وكل الخبز، وكل الخضر في سيارات سخروها لهذا الغرض ... هذا السيل غير المنقطع الذي يقابل بصمت، هذا الحدث الجلل، هذه القوة المنظمة توحي بالخسارة اللاحقة"[105].

إن الذي أدهش سكان منطقة اللوران لحد الإعجاب هو ذلك الانضباط الذي تتميز به الفرق الألمانية"إنها منظمة ومنتصرة" هكذا عبر لويس برتراند في روايته Ma lorraine يسرد وصول فرق الجيش الألماني إلى مسقط رأسه Spincourt التي يصفها بأنها لم تكن شرسة، لكنه كان شاهدا على ذلك الانفعال الذي أصاب فجأة بلدته وضواحيها، لقد شاهد سكانها يسارعون إلى وضع بعض أشيائهم الغالية من مجوهرات ومؤن في أماكن مضمونة وقد رأى كيف فتح والده بمساعدة النجار مكانا في السقف كانت أمه تخبئ فيه كل ما كان ثمينا[106].في هذا الجو عاش لويس برتراند وقد عبر عن هذه الوضعية الصعبة والجو النفسي المشحون بالقلق وانتظار المجهول "في هذا الشهر من أكتوبر 1875، عندما وصلت إلى Brieyكانت حالة الوجع هذه لازالت قائمة بل في ذروتها [107] استغلت الروح الانتقامية من طرف الطبقة المالكة، في مرحلة ما بعد الحرب التي كانت مرحلة صعبة اقتصاديا وغامضة سياسيا وذلك لتحويل أنظار الشعب الفرنسي عن واقعه المر، وأن الذين استغلوا هذا الوضع

---

[105]- M. Barrés : « la colline inspirée »,ed :Emile Paul & frères, paris,1913,p349-350.

[106] -Louis Bertrand : « ma lorraine »Ed delpeuche ,paris , 1926,p 74-77.

[107]- Ibid p85.

هم من كانوا ضد الأحداث التي رافقت الثورة الشعبية التي قامت في العاصمة باريس والمعروفة بكميونة باريس"بحجة" أن الوقت غير مناسب، لأن هذه الأحداث حيرت الطبقة المهيمنة التي كانت تترقب المزيد من الأحداث التي لم تكن فكرت فيها ولا خططت لها ولا استعدت لاحتوائها أو التقليل من آثارها ذلك أن الطبقة العاملة استولت على مقاليد السلطة في باريس لكن عدم استعدادها وضعف تكوينها وتنظيمها حال دون استمرارها في الحكم.

3- لويس برتراند في الجزائر :

عندما حل بالجزائر كان في الثلاثين من العمر ، أسمر فاره القامة، قوي البنية، درس بثانوية بن عكنون وكان يسكن برفقة والده في آخر شارع Rovigo، في مسكن كان متخما بالآثار والأثاث والكتب، وفيه كان يلتقي أصدقائه: ايميل بومون Emile Beaummaun، أوغستان برنار Augustin Bernard، شارل دي غالان Charles De Galland، وستيفان جيزال المؤرخ الذي عرفه بالتاريخ القديم لشمال إفريقيا .

ومن شرفة بيته كان يتأمل الناس يختلفون لقضاء حوائجهم، يبيعون ويشترون ويتصارعون ويتبادلون الصراخ والعنف اللفظي، وكان يتأمل أثر الرومان في قسمات

وجوههم وفي هندسة مساكنهم وفي قباب مساجدهم، لذا حاول أن يكون على اتصال بالناس والأشياء في هذه الأرض الأفريقية، فعرف بدقة كل زوايا القصبة وباب الواد، واتصل بعمال الميناء وأصبح لصيقا وصديقا لهم، وكان هذا المكان هو بوابة المدينة للوافدين عليها من الأوروبيين، فتعرف على رجال الأعمال وأرباب المقاهي والمطاعم ومختلف المهن التي كان الأوروبيون يمارسونها.

اهتم بهذا الخليط الاثني الذي يشكل سكان العاصمة من مختلف الجنسيات الأوروبية، وفي هذا الجو كتب أول قصصه "دم الأعراق" Le Sang Des Races، وكان ذلك سنة 1899، وفي 1895 حول لويس برتراند إلى ثانوية بيجو(الأمير عبد القادرحاليا)، فكلف بتدريس مادة الخطابة وفي أول درس له خاطب تلامذته قائلا : "أيها السادة، يفترض أن العديد منكم سيعيش في جزائر يجهلها، وأنه من واجبي أن أعرفكم بماضيها وبثرواتها الروحية والمادية لأفريقيا الرومانية التي مارست تأثيرا على العالم من القرن الثالث إلى الخامس ميلاديين، انه إشعاع عظيم".

4- ربط الجزائر بالماضي اللاتيني :

يستغرب شارل تليار صاحب كتاب "الجزائر في الآداب الفرنسية " كيف أن الكاتب لويس برتراند هو أحد الروائيين القلائل الذي استطاع التوغل في أعماق التاريخ اللاتيني لهذه المنطقة، ففي كتابه سان أوغستان Saint Augustin حاول بعث أمجاد إفريقيا المسيحية بإعادة بعث و ترميم صورة هذا الفيلسوف مبرزا القيم الأخلاقية والدينية والفكرية التي عاش من أجلها ابن سوق أهراس، ولكن شارل تاليار يستدرك ويصنف هذا الكتاب في حقل التاريخ لا الرواية، بخلاف روايته Sanguis Martyrium التي تجري في إطار إفريقي، فالشخوص كلها افريقية وكذلك الكنيسة التي تجري في ظلها الأحداث فهي افريقية أيضا، تجري الأحداث في سيرتا وفي لامبيز وفي كلسيس هركليس Calceus Herculis[*] وفي قرطاج؛ كلها أماكن خالدة في إفريقيا المسيحية ، "كسيلة" البطل الرئيسي ينحذر من ملوك نوميديا القدامى الذين حكموا البلد، وأن بعض أجداده و آبائه تزوج من فتيات ايطاليات أو قرطاجيات لذا فان سلالته لم تعد صافية، وفي بحر قرن ونصف قرن من الزمن تزوج الأحفاد من ايطاليات واسبانيات وفرنسيات، لذا نشأ "كسيلة" رجل أعمال يملك ضيعة وعقارات، ويرتبط بشبكة من العلاقات الاجتماعية والمصلحية، يحب الرفاهية، ويحب النياشين المهداة من طرف فرنسا فهو يزهو بها أمام أقرانه وعشيرته . .

[*]- هي مدينة القنطرة بولاية بسكرة حاليا .

5 – صورة المعمر في أدب لويس برتراند :

تجلت صورة المعمر عنده خاصة في مؤلفه La Concession De Mme Petit Gand، فالموضوع الأساسي فيها هو الأرض الجرداء القاحلة المهملة والمعمر المستصلح، إذ أن نشاط المعمر واستصلاحه للغابات والأحراش شكل قيمة أساسية في الأدب الكولونيالي، وحتى قبل لويس برتراند فان الجزائر كانت تصور على أنها أرض بلا حياة، غير منتجة مادامت النباتات والحشائش الضارة تكسوها، هذه الصورة التي كان تستغلها بعض الأصوات الفرنسية التي كانت ضد الاحتلال العسكري الفرنسي للجزائر بدعوى أن الثمن باهظ مقابل مردود ضعيف، هذه الصورة هي التي انبرى لمقاومتها مجموعة من الكتاب منهم لويس برتراند، الذي سخر خياله وقلمه في خدمة الايدولوجيا الكولونيالية، إذ صوروا الجزائر بأنها كانت عدما قبل مجيء الفرنسيين، والمعمر الفرنسي هو الذي حولها إلى مصدر للثروة بذكائه وثقافته في العمل، إذ أعطى لها حياة وقيمة، فبعد الاحتلال والتهدئة جاء المعمر الذي استصلح الأرض وقلص المساحات الغابية وجفف المستنقعات وزرعها حبوبا وكروما وأنشأ عليها ضيعات جميلة دقيقة التنظيم، جميلة المنظر، فالمعمر هو الذي خلق الجزائر كما وصف ذلك الفونس دوديه في قصة "الجراد" المنشورة في مجموعة "رسائل طاحونتي" Lettres De

Mon Moulin، **فصورة المعمر الأول المستصلح الباني الحارث الزارع تستحق في نظر الكاتب كل التقدير والإعجاب**، فالمعمر لم يأخذ شيئا من الجزائري الذي لم يكن يملك شيئا أصلا نظرا لفقر الأرض التي كانت بين يديه وتركها ضائعة ومهملة تنبت الأشواك والنباتات الضارة، إن ما يملكه المعمر الفرنسي هو نتيجة مجهودات بذلها وعرقه يتصبب منه أثناء استصلاح الأرض التي كانت الغابة الكثيفة تكسوها بأشجار غير مثمرة لا قيمة لها، هذه هي الرسالة التي أراد لويس برتراند أن يوصلها بقوله معجبا بمستثمرة مدام بتي جان Mme Petit Gand، "هذا المثال البسيط ما هو إلا حلقة ضمن آلاف، من الصراع الذي لم ينته والذي خاضه المعمر (الكولون) في الجزائر ضد رفض الطبيعة والإنسان، إن الفتح العسكري لشمال إفريقيا شاق و لم يكن أكثر من فتح الأرض بالمحراث، وهو أمر لا نعرفه في فرنسا، إننا نجهل أن هذه المزارع الجميلة وهذه الكروم الممتدة على مدى البصر والتي تكسو عمالات (ولايات) الجزائر الثلاث، كان لابد أن نستصلحها قطعة قطعة"[108] .

إن تحول الجزائر ظل هاجسا وعملا جبارا في التفكير الكولونيالي، وجذب إليه معمرين بمواصفات عالية على مستوى هذه المهمة العظيمة، إذ تميزوا كلهم بشجاعة نادرة لم تكذب أبدا، وبلياقة واستعداد بدنيين، وحب للعمل الهادف مع القدرة على التكيف مع المناخ المحلي وهذا ما سماه لويس برتراند بالحس "الكولونيالي" Le sens colonial .

[108] -Louis Bertrand : « a concession de Mme petit grand »,A.fayard,1912, avant propos ,p5.

سخر الكاتب قلمه وفكره لخدمة الاستعمار والمعمرين إذ خصص لهما روايتين من الروايات الأربع التي ألفها:

- La cina سنة 1900 .
- مستثمرة السيدة بتي غان سنة 1912 .

فمن خلالهما يحاول أن يضع بورتريه للكولون مركزا على أدق التفاصيل والمراحل التي تمر بها شخصيته :

- الكولون الأبوي الذي يظهر نفسه في ثوب المصلح الباني الذي أتى الجزائر لبنائها وإصلاح أراضيها الجرداء .
- الكولون الذي لايشبع من النهب .
- الكولون المرشح للوصول إلى هذه المرتبة بعد أن تدرج في مختلف المناصب الإدارية والعسكرية.

كانت هذه هي الصور الثلاث التي حددها لويس برتراند لشخصية الأوروبي المرشح لمرتبة إن يصبح كولون في الجزائر بعد أن جاءها عاريا خالي الوفاض، إلا مما يملكه من

استعدادات فطرية وذهنية لربط علاقات مختلفة مع بني قومه الذين يهيمنون على دواليب الدولة في الإدارة والبنوك. تكلم عن انشغالاته واهتماماته فحلل تصرفاته وعلاقاته بالآخرين من أبناء جلدته وعلاقاته بالجزائريين ومن خلال تحديد هذه العلاقة، يحاول أن يظهر للقارئ القيم العليا التي يعتنقها المعمر ويعمل على تجسيدها في الجزائر، وكان همه هو صناعة صورة للمعمر مطمئنة للذين يعيشون وراء البحر إسكاتا للأصوات التي كانت تنادي بضرورة التخلي عن فكرة الغزو والاستيطان، تصوره بطلا جاء إلى هذه البلاد فاتحا وجابه المصاعب والقلاقل فأخمدها كلها ونزع بزته العسكرية ليتحول إلى مزارع يشق الأرض بالوسائل المتاحة آنذاك .

كان ضروريا تصوير المعمر بهذه الصورة وتسويقها إلى ما وراء البحر لتشجيع كل راغب في الالتحاق بإفريقيا، إن البحث عن المزيد من الأرباح كان هو الشغل الشاغل للمعمرين وللوصول إلى هذا المبتغى غامر الكثير منهم وتحملوا المخاطر، فضاربوا وتحايلوا على الفلاحين الجزائريين واستعملوا كل الطرق القانونية منها وغير القانونية حتى تمكنوا من الاستحواذ وامتلاك المزارع الواسعة الممتدة على لمح البصر، فبطل قصة مزرعة السيدة بتي غان وجد برجوازيا جزائريا ساعده في بناء ثروته ولكنه كان يفضل استعمال سلطاته للحصول على كل ما يريد من خلال منصب كرئيس بلدية "الشريعة" .

"انه يخيف الجميع، وعندما يخاطبنا ننترع قبعاتنا ونكلم بصوت خافت، انه يرعب الجميع؛ أسبان، طليان وعرب، والذين يرفضون الخضوع له يطلق عليهم حراس الغابة لكي يسلطوا عليهم غرامات وهكذا يجبرهم على العمل لصالحه بالأثمان التي يريدها، وإذا كان للعربي ثور أو شاة يريد أن يبيعها فهو مجبر أن يعرضها أولا عليه يشتريها بالثمن الذي يريد[109].

صور هؤلاء الكتاب الجزائر بأنها تعيش في القرون الوسطى في منتصف القرن 19 وبعده كل هذا ما هو إلا تأكيد للأطروحات الكولونيالية وزيادة في الهوه التي ما انفكت تسع بين الشرق الغرب.

وفي هذا الصدد كتب الباحثان فليب لوكا P.Lucas وجون كلود فاتان J.C.Vatin "إن الامبريالية الاستعمارية ترتكز على العلاقة القائمة بين قوي وآخر ضعيف، والذين يوصفون -بغرض الهيمنة- بالايجابي والسلبي، متحجرين ومتطورين، متطورين ومتخلفين ليس من وجهة النظر لا التقنية ولا الإنتاجية ولا التبادلية وأيضا من زاوية الثقافات"[110].

لويس برتراند Louis Bertrand هو الأب الروحي للحركة الجزأرية Le mouvement algérianiste، وأهم المنادين بلاتينية الجزائر وضرورة إرجاع الإرث

109- Louis Bertrand : la concession de Mme petit grand ,A, Fayard ,1912 , p 205-206.
110- P.Lucas et J.C. Vatin : « L'Algérie des anthropologues », F. Maspero, paris, 1975 ,p21 .

اللاتيني لأصحابه الأوروبيين ،ففي مؤلفه Le sang de races يرجع سبب تخلف المجتمع الانديجيني إلى العقلية المتخلفة للإسلام، ويرى العنصر العربي دخيلا على هذه البلاد ، كما أنه من مناصري النظرية العرقية لأرتور غوبينو Arthur Gobineau صاحب نظرية Essai sur l'inégalité des races .

ويعتبر لويس برتراند كذلك رائد الرواية الكولونيالية، إذ جاء أدبه مرآة للايدولوجيا الكولونيالية الاستعمارية كما عبر عن ذلك الباحث الجزائري رابح بلعمري في دراسة القيمة التي قدمها لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة باريس[111].

وصف الباحث بلعمري لويس برتراند بالكاتب الكولونيالي "رائد الرواية الكولونيالية"، ذلك أنه هو ومن سار على نهجه وضعوا خيالهم و أقلامهم في خدمة المستعمر فجاءت أعمالهم مليئة بالرموز المحقرة والمتجاهلة للشعب الجزائري، وقد انفرد وتميز بهذه السمة خلافا لكثير من الكتاب السواح الذين جاءت كتاباتهم غرائبية تبحث عن الشاذ والغريب والعجيب عن سكان الجزائر ليس لغرض نقل صورة الشعب الحقيقية إلى القارئ الفرنسي (الآخر) لتمتيعه بل لتحليل سوسيولوجيا الشعب المحتل وفك شفرات التفكير عنده حتى يسهل على الجيش الغازي السيطرة عليه والتحكم فيه .

---

[111] - Belamri Rabah : « L'œuvre de Louis Bertrand ,miroir de l'idéologie colonialiste » ,OPU-1980,p7 .

يذهب لويس برتراند إلى أن البحث عن الرفاهية هو الشغل الشاغل والهدف الأسمى للمعمرين ولهذا من المستبعد أو المستحيل أن يكونوا قد فكروا في جوانب أخرى تخص الآخر، فالاحساس بالانسانوية واحترام الآخر كانت قيما مجمدة، وهذا ما يفسر عدم التمييز السياسي المتعمد الذي أظهره الكولون اتجاه مطالب الوطنيين الجزائريين، كتب شارل أندري جوليان Charles André Julien في مؤلفه "شمال إفريقيا تسير"، يصف اهتمام الكولون بالبحث عن رفع مستواهم المعيشي وزيادة الأرباح فقط دون الاهتمام بالقضايا الأخرى خاصة ما يتعلق بالعلاقة التي تربطهم بالأهالي، بقوله : "إن عملهم المادي كان أكثر من العمل الاجتماعي وقد كانوا بهذا فخورين ولكن كان ينقصهم هذا الجزء من الحب التي كان الجنرال ليوتي Lyautey يراه ضروريا، إنهم لم يفهموا العلاقات الجماعية و لم يروا إلا دورهم كقادة، واقعيون كانوا ينقصهم الجانب الإنساني واعتقدوا أنهم يصنعون سعادة الإنسان بشق الطرق وبناء السدود ومد خطوط الهاتف، متسلطون لم يحسنوا المحافظة على حساسية "المتطورين" كما لم يصنعوا لهم مكانا في المجتمع"[112] .

---

[112]- Charles André Julien : l'Afrique du nord en marche ,ed :julliard ,paris ,1972,p :44 .

إن ماديتهم المفرطة عقمت حياتهم الفكرية، إن انحطاط المستوى الفكري للأوروبيين

في الجزائر هو ما سماه بعض الدارسين بحاسة الملموس عندهم لذا قال بارولي M.Baroli

"إن أوروبيي الجزائر كانوا يحبون الطبيعة المملوكة، لهذا لم يكن منهم شعراء"[113]، وبالنظر إلى سوابقهم الاجتماعية فان أغلبية الكولون كانوا يرون في الجزائر فرصة سانحة للتخلص من الفقر والعوز وتغيير مستقبلهم،"إن شراهتهم في البحث عن الربح ومراكمة الثروات يفسر رغبتهم في التطهر من الماضي".[114]

بالنسبة للويس برتراند فليس في الجزائر إسلام ولا أهالي بل الجزائر آهلة باللاتينيين من بربر أصبحوا لاتينيين، فالغزو العربي لهذه المنطقة لم يغير شيئا في السكان الأصليين، لأنه يمكن أن نلاحظ تحت التدين العادات الرومانية، فاللباس لم يتغير ومثل ذلك الغذاء ومن هنا تكتشف عقلية الأنديجين الذي تجب إعادة الحياة له بإعادته إلى أصوله اللاتينية حتى يتمكن من توحيد قدره،آماله، وأحلامه، ورغباته، بأحفاد اللاتنيين الذين هم الفرنسيون .فقد حان الوقت لإعادة النظر في عملية الإعجاب بالبرنوس الذي هو زي دخيل على البربر، أتى به العرب من صحراء الجزيرة لأنه لباس يناسب مناخها، وعلى الأهالي أن يقلدوا الأوروبيين في

---

[113]- Marc Baroli :la vie quotidienne des français en Algérie, témoignage pour le peuple pied noirs,fayard,paris,1972,p :215 .

[114]- Belamri Rabah : op CIT , p :148 .

لباسهم لأنه عملي، ويناسب مناخ الجزائر خاصة في الشمال والهضاب العليا حيث المناخ قاري؛ حار صيفا وبارد شتاء مع الفرق الكبير في المدى الحراري بين الصيف والشتاء وبين الليل والنهار.

عمد لويس برتراند إلى إبراز عدم الاستقرار الوجودي لحياة الأهالي واستثمر خياله في إصدار أحكام جزافية عن الطبائع والتنظيم الاجتماعي"فمن عاداتهم ألا يزرعوا حبا ولا شجرا مثمرا، وألا يشربوا خمرا ولا يبنون بيوتا" [115]، لكنه يتعجب من عفة هؤلاء وسموهم الروحي بقوله: "إن تأثير الدين يتجاوز الدين، ذلك أنه كان مسافرا ذات مرة في الهضاب ووصل إلى مكان مهجور، كان مقهى موريا هجره أهله وسكنه شيخ وزوجته اللذان استقبلاه بحفاوة ولما هم بالانصراف حاول أن يجازيهم ببعض المال فرفضا متحججين بأن دينهم يحثهم على إكرام الضيف وهي عادة عربية قديمة من الجاهلية أبقى عليها الإسلام ودعا إليها لنبلها[116].

يقول الناقد الفرنسي Monceaux، عن الناثرين والباحثين البربر الذين عاشوا في الفضاء الجزائري:"إنهم أشبه بمشارقة تائهين في الغرب، ويبقون قرطاجيين ومور أو نوميديين، دون أن

[115]- Charles Tailliart :ibid, p422.

[116]- أنظر نفس المرجع ص 423 .

يشبهوا الرومان، وكونهم اعتنقوا المسيحية فإنهم قد اتخذوا اللاتينية لغة للتعبير عن فكرهم:

- أبيلي Apulée مؤلف أول رواية في التاريخ بعنوان "الحمار الذهبي" L'âne d'or، وهو من مواليد مداورش بولاية سوق أهراس.

- فرانتون Franton وهو من مواليد قسنطينة.

- تارتوليان Tartulien وهو من قرطاج.

-القديس أوغستين المولود بسوق أهراس والمتوفى ببونا عنابة في 430م.

-ليون الإفريقي Léon l'africain وهو حسن الوزاني المولود بغرناطة سنة 1483 والمتوفى سنة 1554 بتونس ألف كتاب "وصف إفريقيا" سنة 1526 تطرق فيه إلى التقنيات الصناعية المستعملة في الصحراء خاصة في المدن وقرى الطوب المعروفة بالقصور: نسيج الزرابي والملابس من الصوف ووبر الإبل وكذلك صناعة الخزف والأواني المنزلية، وتحدث فيه عن عادات وتقاليد سكان القرى والقصور وهي قرى صغيرة مبنية من الطوب تفي الإنسان حاجته؛ تقيه حرارة الصيف وبرد الشتاء لأنها مبنية من وسائل بناء تقليدية محلية.

ولمعرفة الروح المادية للمعمرين، يجب أن يؤخذ بالحسبان المسار الاستراتيجي للجالية الفرنسية بالجزائر، ففي بداية القرن 20م لم يكن التوزيع الاجتماعي والسياسي للجالية قد

اكتمل، كان المعمرون يخلفون الضباط في أعلى هرم السلطة. إن أرستقراطية الدم كانت غائبة في الجزائر، وكان على الماسكين بزمام السلطة الاقتصادية بناء طبقة حاكمة، لأن مستقبل الجزائر أصبح يتحكم فيه المال وبالنتيجة أصبح لدى المعمرين سبق إصرار على جمع المزيد من الثروات وتركيزها، فقد قلص المعمرون من إنشاء المصانع واهتموا بشراء أجود الأراضي لأن أسعارها كانت في متناول أيديهم بالإضافة إلى أن صيانتها والاعتناء بها كانت غير مكلفة، إذ كانت الأراضي الفلاحية هي القيمة المضمونة وأصبح الحلم عند الأوروبي أن يصير معمرا حتى يصعد إلى قمة الهرم الكولونيالي ولكي يصير معمرا يملك ضيعة –والغاية تبرر الوسيلة–، وكل الوسائل ممكنة ومسموح بها، إذ للحصول على رخصة لحيازة الأرض الفلاحية أو المخصصة لذلك التي تسمح لصاحبها أن يجمع بين العزة واللذة وأن يصبح غنيا تعب ومشقة ومسار طويل من السعي ومراجعة الإدارة التي لم تكن تتناغم في بعض الأحيان مع الهدف السياسي.

ففي مستثمرة السيدة بيتي غان التي يمتلكها المعمر نونديو Nondédéo الذي يفرض نفسه سيدا فريدا لا ينازعه أحد في هذه الصفة، ليس لاتساع مزرعته فحسب بل لكونه رئيس بلدية "شريعة"، ومن برجه وسط أراضيه يتمتع بطاعة عمياء من زوجته وبناته

وخدامه وكلابه السلوقية ومجموعة البنادق التي يملكها(إشارة إلى القوة والترهيب الذي يمارسه ضد الأهالي)، وفي البلدية يتصرف كالطاغية مع المواطنين الذين كان يراهم رعايا لا مواطنين لأن كلمة مواطنة تعني التوازن بين الحقوق والواجبات، وسكان البلدية لم تكن لهم حقوق بل يؤدون الواجبات القانونية وغير القانونية وإذا ترددوا أو رفضوا فان المحاضر التي يحررها حراس الغابة ضدهم والتي تجبرهم على دفع غرامات مالية باهظة، أجبرت الكثير منهم على التخلي عن أرضه لصالح السيد Nondédéo بنصف أثمانها بعد أن يكون قد تعرضوا لضغوط ومساومات وتهديدات مبطنة وصريحة، ويقارن الكاتب بين مسار بطله نونديو ومسار ابن عمه الذي كان ضابطا في الجيش ونزع بزته العسكرية ليتحول إلى معمر لكنه من النوع المتحضر —حسب زعمه–إذ يربط علاقات اجتماعية مع الأهالي الذين يشتغلون في مزرعته وكذلك مع الجيران فهم يحترمونه ويكنون له الحب والتقدير، وهنا يقع الكاتب في مفارقة عجيبة إذ كيف يتحول ضابط عسكري كان يقود فرقة من الجيش تمارس العنف والقتل وتشريد المواطنين، تنتهك حروماتهم وتستبيح نساءهم ولا تعير لمقدساتهم أي اهتمام، يتحول إلى معمر نموذجي مسالم يحترم الأهالي وتربطهم به علاقة ود متبادلة، ولا ينقص الكاتب هنا إلى أن يقول بأنه كان داعية لحقوق الإنسان؟ !

هذه هي صورة المعمر التي كان الكاتب يسوقها لبني جلدته وللعالم.

6 – الاستعمار والوطنية في أدب لويس برتراند :

في غياب ضمير سياسي يقظ ومعتدل، فضل الكاتب شحن شخوص أعماله بإحساس وطني زائد عن الحاجة، إذ إنهم يعبرون بكثير من الضجيج عند انتمائهم للجنسية الفرنسية المستعارة لمن كان من أصول غير فرنسية، والمعلوم أن المعمرين لم يكونوا كلهم من أصول وجذور فرنسية، فبعضهم كان من اسبانيا وايطاليا ومالطا واليونان وغيرها من الجنسيات المختلفة، لكن انخراطهم في المسعى الفرنسي الرامي إلى تشجيع الاستيطان في الجزائر جعل منهم فرنسيين بحكم القانون إذ عمدت السلطات الفرنسية إلى تمكينهم من الجنسية مادامو يساهمون في تثبيت سياسة الاستيطان وتدعيم الوجود الفرنسي على أرض الجزائر طبقا لمقولة المعمرين"نهر السين يمر بباريس كما أن المتوسط يمر بفرنسا La seine traverse paris comme la méditerranée traverse la France.

لقد كانت الوطنية الزائدة التي يتظاهر بها شخوص الكاتب من تصرفات البرجوازية الفرنسية الحاكمة في الجزائر، لذا ظل الكاتب يردد شعاراتها إلى آخر لحظة في حياته، ففي سنة 1936م كتب في إحدى النشريات المعادية للأممية والشيوعية، يقول: "يجب إذن على كل

الأمم أن تكون قوية حتى تجابه العدو المشرك، ولكي تحقق التوازن المتبادل باحترام حقوقها، يجب عليها أن تتسلح بديناميكية ، تنمي فيها الحس الوطني" [117]. فالكاتب يحاول أن يغازل البرجوازية ويقف ضد كل النقابات التي تحاول أن تهيكل الطبقة العاملة ضد مصالح الطبقة المالكة، فقد كان يرى أن كل تنظيم نقابي هو جمعية ضد الطبيعة، إن الأخلاق والفروسية تفرض على كل عامل أن لا يثور ضد رب العمل فحسب بل عليه أن يلتزم حدوده ويرضى بالتقسيم الاجتماعي والطبقي، فرب العمل هو خالق للثورة وضامن لمناصب العمل ، وأن كل ترقية اجتماعية يجب أن تتم داخل نفس الطبقة وإلا تكون مستحيلة أو مكلفة ويمكن أن تؤدي إلى نتائج وخيمة، ففي قصة Pépète le bien aimé يصور رفائيل وبليسييه يريد أحدهما أن يشتغل لحسابه والثاني يريد أن يصبح معمرا ولكنهما يفشلان في مسعاهما الرامي إلى الاستقلالية، لذا فان المجتمع الذي كان يتصوره الكاتب

هو مجتمع جامد مثل مجتمعات العصر الحجري، وان كل محاولة للتسلق إلى طبقة عليا تكون محاولة ممنوعة ومقموعة[118].

تأكيدا وتدعيما للطروحات الكولونيالية صورت الحركة الرومانتيكية الجزائر منطقة تعيش في القرون الوسطى حضاريا رغم أنها في القرن 19م، إن كره رموز الحركة

---

[117]- Louis Bertrand : « l'internationale, ennemie des nations »,Zurich,1936,p12.

[118] -Louis Bertrand : « pépète le bien aimé »,S.E.P.E ,Paris,1948,p :114.

الرومانتيكية للمدينة وحبهم للماضي ساعد على توسيع الهوة القائمة بين الشرق والغرب، إن الحركة الرومانتيكية لم تصور الأهالي على أنهم برابرة ولكن صورتهم على أنهم يعانون تخلفا عمره عدة قرون بالنسبة للأوروبيين. إن مثل هذه الدعاية كانت موجهة مباشرة إلى أحاسيس"الرجل الأبيض" لتحفيزه على مواصلة مشوار عملية نشر الحضارة الأوروبية في منطقة متخلفة أراضيها جرداء وإنسانها عاجز يعيش في الخرافة والفاقة والكسل، بهذا الأسلوب يواصل لويس برتراند مشواره لخدمة الايديولوجيا الكولونيالية ولتجسيد هذا الكيمياء العجيب يستعير مقولة أرتير رامبو Arthur Rimbaud "يوم أنتهي، أغادر أوروبا، هواءها البحري يشعل رئتي، المناخات البعيدة تدبغها، أعود بقوائم من حديد، ببشرة سمراء، بعين مخيفة، بقناعي يعتبرونني من جنس أقوى، سيكون لي الذهب، سأكون عاطلا وعنيفا...انخرط في الأعمال السياسية، نجوت" [119]، فمقولة رامبو هذه تأكد حب الأوروبي للمغامرة وخوض التجربة في مناطق يعتبرها الأوروبيون متخلفة

نزل سكانها من الأشجار لتوهم، يصلون إليها لجمع الذهب والفضة والعودة إلى أوطانهم لخوض تجربة جديدة وتسلق الهرم الاجتماعي والسياسي.

قد يكون جول فيرن Jules Verne هو الذي صنع هذا الجيل من الرحالة لأنه

[119]-Arthur Rimbaud : « Une saison en enfer », le club français du livre,1957,p :192.

كتب قصصا من الخيال العلمي كلها أو جلها تحقق "رحلة إلى القمر" عشرون ألف ميل تحت البحار خمسة أسابيع بالمنطاد-رحلة إلى مركز الأرض"،يكون هذا الكاتب هو من قام بالخطوة الأولى في مسيرة شاقة وطويلة ولكنها ممتعة ومفيدة، فهل حصل على الاعتراف من طرف هؤلاء الكولونياليين؟.

7- موقف لويس برتراند من النظام الجمهوري:

كان الكاتب يبدي استياء وحقدا إزاء النظام الجمهوري، فقد كان ينتقد كل الأفكار الجمهورية ويرفضها وتعود أسباب هذا الموقف إلى ما ألحقه النظام الجمهوري بعائلته إذ كان سببا في انشطار العائلة وضياع ممتلكاتها ومصالحها وتقهقرها اجتماعيا وفي تعاسته هو، إذ كيف يمكن أن يخترق هذا الجدار الحديدي الذي أقامه الأغنياء والتجار والصناعيين والماسونيين، كيف له أن يصل إلى الضفة الأخرى ليشعر بالأمان؟

لقد كان النظام الجمهوري في أعز الأزمة رغم الانجازات المبهرة التي حققها كبناء برج ايفل سنة 1887م وإقامة المعرض العالمي 1889م ومع ذلك فان ما كان يكتبه لويس برتراند ناقدا للنظام وجد صداه عند الشباب لأنه وجد نفسه ما بين 1880-1890 في أزمة خانقة سدت في وجهه الآفاق وعجز الشباب عن تصور جوانب الأزمة أو القيام بتحليل

صحيح لعناصرها وأسبابها وأن يربط الأسباب بالنتائج. إن الشعور بالمرارة ناتج عن أحداث 1870م إذ لم تتصور هذه الشريحة اقتطاع جزء من التراب الفرنسي من طرف الألمان وانهيار الجيش وعدم قدرته عن الدفاع عن جزء لا يتجزأ من الأرض الفرنسية الشيء الذي جعل الفرنسيين يقتتلون فيما بينهم ويعيشون أوضاع الترقب والحذر بينما يستأسد هذا الجيش نفسه في إفريقيا وتصلهم أخباره بأنه حقق فتحا عظيما ويساهم في رسالة حضارية غايتها تمدين شعوب متخلفة.

لم يختر هؤلاء الناقمون على النظام صف الأعداء، فلقد أسفر هذا المخاض العسير عن ميلاد الحزب الكولونيالي سنة 1890 وضم في صفوفه كل من يهمه نجاح عملية الاستعمار والاستيطان، تلتها تأسيس لجنة إفريقيا الفرنسية في 1892م ولهذا الغرض تشكلت كتلة هذا الحزب في البرلمان بقيادة ايتيان Etienne نائب عن عمالة وهران، بالإضافة إلى هيئات تابعة للحزب ومنها جمعية الجغرافيا بوهران التي قدمت خدمات جليلة بكتاباتها وبحوثها التي خدمت الاستعمار خاصة لأن عهد الاستقلال لم يعط لأعمالها أي اهتمام نظرا للجهل المنتشر في مختلف دواليب الدولة، وهكذا اختفت أهم الكتب والأبحاث التي قام بها أعضاؤها، والتي لا تقدر بثمن، أخذها انتهازيون باعوا بعضها من وراء البحر واحتفظوا ببعضها الآخر ديكورا في صالوناتهم، لم يلتفت إليها أبناؤهم وأحفادهم وقد تلقى في سلة المهملات أو تباع في سوق الخردة وكأنها أواني أو أشياء وليس ثمن.

8- ظاهرة الاستيطان والأدب الكولونيالي :

الاستيطان ظاهرة تاريخية وسياسية قدمت من طرف الأدب الكولونيالي كعلاج شافي لكل أمراض المجتمع الفرنسي الذي كان يعاني من أزمات متعددة الجوانب، تصدير المعارضين وتهجير العاطلين وصناعة حلم شجع قوافل كثيرة من الفرنسيين وغير الفرنسيين للانتقال إلى الجزائر ومحاولة الارتقاء إلى مركز اجتماعي أعلى وهو الحصول على أرض فلاحية وزراعتها كروما وحبوبا ومزروعات مختلفة تمكن صاحبها من أن يصبح ثريا، وقد تناغمت البنوك مع المؤسسات السياسية الصانعة للقرار لتقديم وتسهيل القروض للمعمرين لتشجيعهم على الاستيطان والتسلق والصعود إلى طبقة اجتماعية مالكة مهيمنة صانعة للقرار السياسي في المستعمرة، وقد لخص ألبير ميمي Albert Mémmi هذا الوضع بقوله: "نلتحق بالمستعمرة لأن الأوضاع مضمونة، الرواتب مرتفعة، التدرج في الوظيف سريع، والأعمال مربحة، لكل خريج شاب عمل مضمون، للموظف رتبة أعلى، للتاجر مسح للضرائب معتبر، للصناعي المواد الأولية واليد العاملة بأسعار لا تضاهى"[120].

[120] -Albert Memmi : « Portrait du colonisé »,petite bibliothèque payot,paris,p34.

إن فرحة لويس برتراند للحاق بالجزائر لا تخرج عن هذا المسعى لأنه يضع المال فوق كل اعتبار ويحسب له حسابا ، إن المسار الكولونيالي للكاتب لم يكن صدفة وقد أحس وهو يضع قدميه على أرض الجزائر بأنه يلمس أرض الأحلام، لهذا شرع وبعيد وصوله إلى الجزائر في رحلة إلى الجنوب الجزائري للوقوف على تلك الصور التي كان يحتفظ بها في مخيلته : رؤية الحريم، قصور ألف ليلة وليلة، الرقص الشرقي، المتعة الحسية والجنسية، الفضاء الواسع والنور المبهر، ولكنه لم يجد كل هذا، فأقنع نفسه مع ذلك أنه محظوظ إذ عاش رحلة ملحمية في قافلة من العربات تجرها خيول ذكرته بجيش الفاتحين الغزاة الذين وصفهم بأنهم أشداء أقوياء وأحس بالفخر لأنه منهم، وشبههم بالأوروبيين الذين استوطنوا أمريكا، لكنه لم يضع في الحسبان اختلاف الزمن واختلاف الأرض والإنسان وانتماء الإنسان وارتباطه بالأرض، فالأهالي في الجزائر يموتون من أجل العرض والأرض وهو أمر لم يجابه به الإنسان الأوروبي وهو يستوطن القارة الأمريكية إلا قليل، وحتى إن حصل فان التاريخ الرسمي لم يعكس تلك المواجهات التي قام بها الهنود الحمر للوقوف أمام توغل الإنسان الأوروبي في العالم الجديد.

ومن خلال ما تقدم يظهر أن لويس برتراند عاش اكتشاف الجزائر كعمل مملوء بالعاطفة –أرض الأحلام وأرض الفرص– يأتيها الأوروبي خالي الوفاض فارغ اليدين والجيوب وبقدرة قادر يصبح معمرا يملك ضيعة أو ضيعا، يشغل الأهالي بطريقة استعبادية بأسعار جد زهيدة .

وفي هذا الصدد يقول الباحث رابح بلعمري :"إذا كان الخطاب الكولونيالي ولد أثناء الاحتلال ومن اجل تسويغه، فانه لازال قائما و لم يخلق لتلك الحقبة فقط،ذلك أن خطاب لويس برتراند ومن لف لفه من التيار المنضوي تحت لواء الأدب الكولونيالي لازال قائما ومستساغا عند بعض الأوساط السياسية التي ترفض تطور التاريخ والتي مازالت تؤثر على الطبقات الوسطى للمجتمع الفرنسي، فالخطاب الكولونيالي يشكل روح الخطاب الرأسمالي الذي يريد أن يستمر تحت أشكال أخرى، فإذا كان مستوى المعيشة في المجتمعات الغربية قد بلغ مستويات راقية فلأنها رفضت دائما مطالب المجتمعات التي كانت ترزح تحت سيطرتها، إن الانتقاد اللاذع الذي توجهه القوى الغربية لكل الشعوب التي تريد أن تتحرر من سيطرتها يكشف أسس ثقافتها القائمة على نفي الآخر والنظر إليه نظرة دونية، إذ لازالت بعض الأوساط الاستعمارية الفرنسية تردد قولها : لم يكونوا يستغلون أرضهم هم سعداء كما هم، ومن حقنا أن نتركهم في جمودهم لكي يفهموا أنهم لم يكونوا مؤهلين لنيل الاستقلال، كان يجب أن نؤطرهم وان نترك لهم الوقت الكافي للتأهيل، الجزائر هي اقل مستوى الآن من العهد الاستعماري [121]، هذا هو التقييم الذي يقدمه تيار الأقدام السوداء لوضع الجزائر الحالية؛ تقييم منطقي وموضوعي في بعض جوانبه لكنه ذاتي في جوانب أخرى كثيرة إذ أغفل الرقي

[121]-Rabeh Belamri :op cit , p :267 ET 268.

الاجتماعي والثقافي الذي حصل بعد الاستقلال، وأغفل كذلك إرادة شعب في حكم نفسه بنفسه لأنه آمن بمقولة الشابي :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

وقد استجاب القدر ، فهل استطاعت الدولة الوطنية أن تبني مجتمعا يضاهي المجتمع الكولونيالي ، وهل استطاعت الدولة الوطنية أن ترد في الميدان على مقولة المستعمر السابق عن ايجابيات الاستعمار؟

الخاتمة

الخاتمة :

صورة الجزائر في مخيال الآخر هو موضوع الإشكالية التي حاولت أن اطرحها في هذا البحث المتواضع الذي اخذ مني جهدا كبيرا نتج عن فترة الانقطاع التي فصلت بين بدايته ونهايته .

صورة الجزائر عند بعض الأدباء الفرنسيين في القرن 19 م أخذت من رحم صورة القفر الكتابي الواردة أصلا في الكتاب المقدس وأسفار اليهود – سفر التكوين وسفر الخروج وسفر التثنية والأسفار الأخرى المختلفة التي كونت عبر التراكم الزمني والمعرفي للثقافة المسيحية اليهودية **la culture judéo chrétienne** ، هي الصورة التي تخيلها الكتاب والأدباء الغربيون: صورة الشرق الذي صنعة الغرب كما ذهب إلى ذلك د/ادوارد سعيد؛ صورة استقى الغربيون بعض أجزائها من ألف ليلة وليلة وهو النص المبهر الذي أعجب به الغرب وتمثله في ثقافته ونسج على منواله من خلال المشاهير فولتير وموليير وراسين ولمارتين وفيكتور هوجو ومونتيسكيو وغيرهم من أساطين الأدب والفن .

تصور الكتاب الفرنسيون الجزائر صحراء قاحلة تعج بالأفاعي والأسود ومختلف الحيوانات الضارية، وتصوروا الجزائري إنسانا همجيا يغضب ويثور لأتفه الأسباب، وتصوروه أعرابيا جلفا يتظاهر بالطيبة ولكنه يضمر الحيلة والحقد ولا يتورع عن الكذب والمراوغة، وتصوروه بدويا يركب ناقته في الصحراء وقد غطى رأسه بعمامة تغلف رأسه وعقله، وتصوروه زير نساء لا يتورع عن جمع العشرات منهن في الحريم .

حاولنا تتبع أجزاء هذه الصورة من خلال:

1- نص طرطران دو طرسكون الذي ألفه الفونس دوديه واصفا رحلته إلى الجزائر التي هي المعادل الموضوعي لإفريقيا وقد وصفها بذلك، حكى فيها على لسان بطله طرطران بطولاته وانجازاته وكيف انه كان مقداما وشجاعا ودخل أدغال إفريقيا وصحاريها واصطاد عشرات الأسود التي تخيلها و لم يرها أصلا، هذه الرحلة التي لم تتعد مدينة الجزائر وضواحيها وكانت ابعد نقطة جغرافية فيها هي سهل الشلف الذي قتل فيه عن طريق الخطأ والمصادفة أسدا هرما اعمي كان مطية لأتباع ولى صالح يشحذون به، عاد بعد ذلك إلى بلده بخفي حنين ولكنه استقبل استقبال الأبطال لان أبناء بلده تابعوا أخباره من خلال الصحافة التي كانت تنشر نصه الأدبي تباعا والذي اقتبسه وقلد فيه الفنان الكاتب الفرنسي Eugène Fromentin في كتابه Un été dans le Sahara وقد تصدى له الباحث Léon de goumiou بالنقد والتمحيص وبين للقاري المهتم أن نص دوديه لم يكن إلا نسخة مشوهة عن فرومنتان وبلغة النقد المعاصر فهو تناص ولكنه في الحقيقة لم يكن كذلك .

2 – نص " علومة " ل غي دوموبسان الذي زار الجزائر مرات متتالية وكتب عنها ثلاثة نصوص هي: "علومة" و"ذات مساء في بجاية" و"محمد فريبوي" ، وقد تناولت بالبحث والتحليل نص علومة لما فيه من رمزية ومفارقة فقد صور الجزائر فتاة ضائعة تائهة تحب الحرية وتحب الحياة لكن الأقدار والظروف أجبرتها على الإقامة تحت سقف احد المعمرين-الذي هو رمز لفرنسا- تقيم عنده وتقيم معه علاقة محرمة، أقامت عنده فترة، ولكنها في النهاية تفر مع احد أبناء وطنها .

وهذا النص هو نص رمزي تصور الكاتب فيه الجزائر آمرة تجبرها الظروف على الدخول في علاقات غير شرعية مع المستعمر، لكن معدنها الأصيل يدفعها للمغادرة مختارة الحرية مفضلة ابن بلدها.

كتب غي دو موبسان هذا النص بأسلوب سردي وبجمل قصيرة مفهومة للقارئ العادي وتحيل على رموز كثيرة .

3 – نص سانقيس مارتيروم للكاتب الكولونيالي لويس برتراند الذي يحاول فيه أن يربط الجزائر بالماضي اللاتيني، ويصف فيه الوجود العربي الإسلامي بالاحتلال العربي المدمر الذي خرب البلاد وأحال الأرض جرداء لأنه علم أهلها الكسل والاتكال.

– نص مستثمرة مدام بيتي غان وفيه يحاول أن يصور المعمر بالإنسان النشيط الذي يبذل قصار جهده لاستصلاح الأرض التي كانت بورا تأكلها الحشائش الضارة، كيف أنه استصلح بعرقه وبالوسائل البدائية المتاحة مغفلا دور الأهالي في هذا العمل الجبار.

– أما نص "دم الأعراق" فانه ينحاز إلى النظرية العرقية التي تقول بتفوق الجنس الأوروبي على الأجناس الأخرى، وبالنتيجة تكون الريادة للجنس المتفوق العاقل الذي يستعمل عقله في مجابهة الآخر.

هذه هي بعض أهداف البحث اسأل الله أن أكون قد وفقت .

- قائمة المصادر و المراجع العربية :

1- أحمد عثمان: الشعر الإغريقي تراثا انسانيا وعالميا، سلسلة عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطابع الرسالة، الكويت، 1984.

2- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ، الجزء الأول،ط 3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.

3- ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط 1، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب العلمي، 1991.

4- أبو القاسم سعد الله : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978.

5- أحمد منو ر: الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن 19، ط 1، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.

6- ادوارد سعيد : الاستشراق ، ت.كمال أبو ديب، ط 2 ، مؤسسة الأبحاث العربية، 1984.

7- بومدين جلالي: النقد الأدبي المقارن في الوطن العربي، ط 1، دار الحمراء للطباعة والنشر، الجزائر، 2012.

8- توماس بلفينش: عصر الأساطير، ت. رشدي السلسي، مراجعة محمد صقر، دار النهضة العربية، خفاجة، 1966.

9- جون فليتشر: نقد المقارنة، ت. نجلاء الحديدي، مجلة فصول، عدد 3، سنة3، 1983.

10- رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الابريز في تلخيص باريز، طبعة بولاق، 1936..

11- سالم المعوش: صورة الغرب في الرواية العربية، ط 1، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت لبنان، 1998.

12- سعيد علوش: دراسة منهجية"مدارس الأدب المقارن"، المركز الثقافي العربي،ط1، لبنان، المركز الثقافي العربي، 1987.

13- شريفي عبد الواحد: ألف ليلة وليلة وأثرها في الرواية الفرنسية في القرن م، ط1، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2001.

14-عبده عبود: الأدب المقارن مشكلات وآفاق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999 .

15- عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ط 1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

16- عبد الله شريط ومحمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، ط 1، مكتبة البعث، 1965 .

17- عطية نصر عامر: محاضرة في كتاب"أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب؛ ملتقى منعقد بجامعة عنابة، من 14-19 ماي 1983، ديوان المطبوعات الجامعية، 1985.

18- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن ، دار العودة، بيروت، 1983.

19- محمد رمضان الحربي: الأدب المقارن، منشورات ELGA، فيلتا- مالتا،1987.

20- ماري فرانسوا غويار: الأدب المقارن، ت. هنري زغيب، ط 1، منشورات هويدات، بيروت، باريس، 1978.

21- مصطفى الأشرف : الجزائر الأمة والمجتمع، ت. حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983

22- مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.

<u>قائمة المصادر والمراجع الفرنسية:</u>

23-Arthur Rimbaud : « Une saison en enfer », le club français du livre, 1957.

24-Albert Memmi : « Portrait du colonisé »,petite bibliothèque payot, paris.,1963.

25-August Besset : « A travers l'Algérie d'aujourd'hui notes et croquis » Ed : Roy Frères, 1896

26-Alphonse Daudet : « Lettres de mon moulin », Edition : Booking international, paris, 1993.

27- Alphonse Daudet : « les aventures prodigieuses de Tartarin De Tarascon »ed booking international,Paris,1993.

28-Belamri Rabah : « l'œuvre de Louis Bertrand, mémoire de l'idiologie colonialiste, 1er ed, OPU ,Alger,1980.

29-Claude Levis Strauss : « Rencontre et exposition sur les littératures coloniales »,anthropologie structurale, ed. Plon, Paris,1977.

30-Claude Pichois André Michel Rousseau et Pierre Brunel : « Qu'est-ce que la littérature comparée » Ed : Armand Colin, Paris, 1984, collection 4.

31-Charles Tailliart : « L'Algérie dans la littérature française », rééditée par Slatkine repints, Genève, 1999.

32-Charles André Julien : l'Afrique du nord en marche ,ed :julliard ,Paris ,1972.

33- Debray (Regis) : « vie et mort de l'image -une histoire du regard en occident- » ,Ed. Gallimard, Paris,1992.

34-Denise brahimi : « Maupassant au Maghreb au soleil la vie errante »,ed . seuil,1979.

35-Emile De Masqueray: « souvenirs et visions d'Afrique » ,la boite à documents , paris ,1989.

36-Edward Said : « l'orient crée par l'occident l'orientalisme » Ed. du Seuil, paris, 1978.

37-Fabienne Soldini :« la Construction bestiale de l'aterité » in Littérature et temps Colononial , n^0 49,1969.

38- Guy De Maupassant : « la main gauche ,Alouma » ,ed : albin Michel, paris ,1951.

39-GUY De Maupassant : « Au Soleil », Ed : le Sycomore, paris 1982.

40-G. Boudien : « in l'Algerianiste », n° 60 ,décembre 1992.

41-Joélle Redouane « l'Orient arabe vu par les voyageurs Anglais » OPU ,ENL Alger 1988.

42-Léon degoumois :« l'Algérie d'Alphonse Daudet » d'après tartarin de tarascon, Ed :Sonor Genève, 1922.

43-Louis Bertrand : « ma lorraine »Ed delpeuche ,paris , 1926

44-Louis Bertrand : « l'internationale, ennemie des nations », Zurich,1936.

45-Louis Bertrand : « pépète le bien aimé »,S.E.P.E ,Paris,1948

46-Louis Bertrand : « la concession de Mme petit grand », A.fayard 1912.

47-Louis Bertrand : « le sang des races »ed.G.Crès,Paris,1921.

48-Louis Bertrand : « Saint Augustin »,Ed. Fayard,Paris,1913.

49-LouisBertrand : « SanguisMartyrum » ed.Fayard,Paris,1918.

50- Louis Bertrand : « la Cina »,ed ollendorff,Paris,1901.

51-Maradon. Sylvaine: « L'image de la France dans l'Angleterre victorienne »,Armand Colin,Paris,1967.

52-Michel Roux : « le désert de Sable », Ed : l'Harmattan , paris,1996.

53-Montesquieu : « Lettres persannes », Booking International, Paris, 1993.

54-M. Barrés : « la colline inspirée »,ed :Emile Paul & frères, paris,1913

55-Marc Baroli :la vie quotidienne des français en Algérie, témoignage pour le peuple pied noirs,fayard,paris,1972.

57- Pageaux D.H: « Littérature portugaise, littérature comparée et théorie de la littérature », ed :lisbonne,1970.

58-Paul Bourd : « A travers l'Algérie », Challame Ainé , 1865, Paris.

59-Pierre Rossi : « la cité d'Isis ou l'histoire des arabes », nouvelles Editions Latines,paris, 1976.

60-Pierre Lucas et J.C. Vatin : « L'Algérie des anthropologues », F. Maspero, paris, 1975.

61-René Etiemble :« Comparaison n'est pas raison » Collection « Les essais » Gallimard, 1963.

62-Regise Louis : « Voyage et séjours » ,Editeur Galman, 1880, Paris.

63-Roland Lebel :« Etudes et littérature coloniale », ed : peyronnet et Cie ,paris, 1928.

64-Simon Jeune :« Littérature générale et littérature comparé »,in lettres modernes, col . situation n^{0} 17,1968.

65-Dictionnaire de la langue française encyclopédie et noms propre, ed. alpha Italie. 1994.

الفهرس

الباب الثاني: صورة الجزائر في الأدب الفرنسي

الفصل الأول : صورة الجزائر في أدب ألفونس دوديه

الفصل الثاني : صورة الجزائر في أدب غي دوموبسان

الفصل الثالث : صورة الجزائر في أدب لويس برتراند

الخاتمة